أربع مقالات فلسفية



الشرارة

المركز الماركسي اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

مارس 2016

ماو تسي تونغ

أربع مقالات فلسفية

دار النشر باللغات الأجنبية
بكين 1968

الشرارة
مارس 2016

في الممارسة العملية

في العلاقة بين المعرفة والممارسة العملية
العلاقة بين المعرفة والعمل[-]

(يوليو –تموز – 1937)

كانت المادية قبل ماركس تنظر إلى قضية المعرفة بمنأى عن طبيعة الإنسان الإجتماعية وبمعزل عن تطوره التاريخي ، ولذلك لم يكن في مقدورها أن تدرك تبعية المعرفة للممارسة العملية الإجتماعية ، أي تبعية المعرفة للإنتاج والصراع الطبقي.

أما الماركسيون فيعتبرون أولاً وقبل كل شيء أن نشاط الإنسان في الإنتاج يشكل أهم نشاطاته العملية الأساسية ويقرر نشاطاته الأخرى. فالإنسان ، بالاعتماد بصورة رئيسية على نشاطه في الإنتاج المادي ، يتفهم تدريجياً ظواهر الطبيعة وخصائصها والقوانين التي تتحكم فيها ، والعلاقة بين الإنسان وبين الطبيعة ؛ وكذلك يتفهم تدريجياً وعلى درجات متفاوتة عن طريق نشاطه في الإنتاج ما يربط بين الإنسان والإنسان من علاقات معينة. ولا يمكنه الحصول على أي معرفة من هذه المعارف بمعزل عن النشاط في الإنتاج. ففي المجتمع اللاطبقي يتعاون كل امرئ ، بوصفه فرداً من المجتمع ، مع أفراد المجتمع الآخرين ويرتبط معهم بعلاقات إنتاج معينة ويسهم في النشاط الإنتاجي من أجل حل مشكلة حياة الإنسان المادية. وهذا هو المصدر الأساسي لتطور المعرفة البشرية.

إن الممارسة العملية التي يباشرها الإنسان في المجتمع لا تقتصر على شكل النشاط الإنتاجي وحده ، بل تتخذ أشكالاً أخرى عديدة __ الصراع الطبقي والحياة السياسية والنشاطات العلمية والفنية ، وباختصار جميع مجالات الحياة الواقعية في المجتمع وهي جميعاً مما يساهم فيه الإنسان ككائن اجتماعي. وهكذا يتوصل ، بدرجات متفاوتة ، إلى معرفة العلاقات المختلفة بين الناس لا من خلال حياته المادية وحسب ، بل من خلال حياته السياسية والثقافية (وكلتاهما مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة المادية) أيضاً. ومن بين أشكال الممارسة العملية الاجتماعية هذه ، يترك الصراع الطبقي خاصة ، في أشكاله المختلفة ، أثراً عميقاً في تطور المعرفة البشرية. ففي المجتمع الطبقي يعيش كل إنسان كفرد من أفراد طبقة معينة ، ويحمل كل نوع من أنواع التفكير دون استثناء طابع طبقة معينة.

[-] كان في حزبنا رفاق من ذوي نزعة الجمود العقائدي ظلوا فترة طويلة من الزمن يرفضون تجربة الثورة الصينية ، منكرين الحقيقة التالية: "الماركسية ليست عقيدة جامدة بل هي مرشد للعمل" ، فكانوا يقنعون بالتقاط شذرات من نصوص الكتب الماركسية دون أن يهضموها ، ليهولوا بها على الناس.

وكذلك كان هناك رفاق آخرون من ذوي النزعة التجريبية.ظلوا خلال فترة طويلة من الزمن يحصرون أنفسهم في محيط تجاربهم الشخصية الجزئية فكانوا لا يدركون ما للنظرية من أهمية بالنسبة.إلى الممارسة العملية الثورية ، ولا يرون الوضع العام للثورة ، وبالتالي كانوا يعملون على غير هدى رغم أنهم يبذلون في العمل الجهود المضنية. وقد سببت الأفكار الخاطئة لهذين الفريقين من الرفاق ولاسيما أفكار أصحاب الجمود العقائدي خسائر جسيمة للثورة الصينية خلال أعوام 1931-1934 ، ولكن أصحاب الجمود العقائدي كانوا يرتدون معطف الماركسية ، لذلك استطاعوا أن يضللوا كثيراً من الرفاق. وكتب الرفيق ماوتسي تونغ مقالة "في الممارسة العملية" هذه ليفضح ، انطلاقاً من وجهة النظر الماركسية حول المعرفة ، هذه الأخطاء ذات النظرة الذاتية في الحزب التي تتمثل في نزعة الجمود العقائدي والنزعة التجريبية وعلى الأخص في نزعة الجمود العقائدي. وقد وضع للمقالة عنوان "في الممارسة العملية" لأنها تركز على فضح النظرة الذاتية المتمثلة في نزعة الجمود العقائدي التي تستهين بشأن الممارسة العملية. وكان الرفيق ماوتسي تونغ قد ألقى قبل ذلك محاضرة في الكلية الحربية.والسياسة المناهضة لليابان في يانآن تضمنت الأفكار الواردة في هذه المقالة.

يعتبر الماركسيون أن النشاط الإنتاجي في المجتمع البشري يتطور خطوة فخطوة من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا ، وتبعاً لذلك فإن معرفة الإنسان ، بالطبيعة كانت أم بالمجتمع ، تتطور أيضاً خطوة فخطوة من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا ، أي من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة ومن معرفة وحيدة الجانب إلى معرفة متعددة الجوانب. وفي مرحلة طويلة من التاريخ ، لم يكن من الممكن لمعرفة الناس بتاريخ المجتمع أن تتعدى حد المعرفة الوحيدة الجانب ، والسبب في ذلك يعود من جهة إلى أن تعصب الطبقات المستغلة (بكسر الغين) كان على الدوام يشوه تاريخ المجتمع ، ويعود من جهة أخرى إلى أن النطاق الضيق للإنتاج كان يحد من آفاق الناس. ولم يستطيعوا أن يحصلوا على فهم تاريخي متكامل لتطور تاريخ المجتمع ، ويحولوا معرفتهم بالمجتمع إلى علم ، أي علم الماركسية ، إلا عندما ظهرت البروليتاريا الحديثة مع ظهور القوى المنتجة الجبارة ، أي الصناعات الكبرى.

ويعتبر الماركسيون أن الممارسة العملية التي يباشرها الإنسان في المجتمع هي وحدها المقياس الذي يختبر به ما إذا كانت معرفة الإنسان بالعالم الخارجي حقيقة أم لا. والواقع أن معرفة الإنسان لا تثبت صحتها إلا عندما يتوصل من خلال ممارسته العملية الاجتماعية (خلال الإنتاج المادي والصراع الطبقي والتجربة العلمية) إلى إحراز النتائج المنشودة. فإذا أراد الإنسان أن يحقق النجاح في عمله ، أي يحقق النتائج المنشودة ، فعليه أن يجعل أفكاره متفقة مع قوانين العالم الخارجي الموضوعي ، فإذا لم تكن أفكاره متفقة مع هذه القوانين فلابد أن يفشل في الممارسة العملية. وإذا فشل فإنه سوف يستخلص الدروس من فشله ويصحح أفكاره ويجعلها متفقة مع قوانين العالم الخارجي ، وعندئذ يستطيع تحويل فشله إلى ظفر ، وهذا هو المقصود من قولهم: "الفشل أم النجاح" وقولهم: "كل عثرة تزيد الإنسان فطنة". إن النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة تضع الممارسة العملية في المقام الأول إذ تعتبر أن معرفة الإنسان لا يمكن أن تنفصل إطلاقاً عن الممارسة العملية ، وتنبذ كل النظريات الخاطئة التي تنكر أهمية الممارسة العملية وتفصل المعرفة عن الممارسة العملية. وهكذا قال لينين: "إن الممارسة العملية أعلى من المعرفة (النظرية) لأنها لا تمتاز بصفة الشمول فحسب ، بل تمتاز كذلك بصفة الواقع المباشر."[1]- إن للمادية الديالكتيكية __ الفلسفة الماركسية ميزتين بارزتين: أولاهما صفتها الطبقية ، فهي تعلن بصراحة أن المادية الديالكتيكية هي في خدمة البروليتاريا ، والثانية صفتها العملية ، فهي تؤكد على تبعية النظرية للممارسة العملية حيث أن النظرية تقوم على أساس الممارسة العملية ثم تعود لخدمة الممارسة العملية. إن ما يستند إليه المرء لكي يحكم بأن المعرفة أو النظرية حقيقة أو لا ، ليس هو الأحاسيس الذاتية بل هو النتائج الموضوعية للممارسة العملية الاجتماعية. فالمقياس الوحيد لمعرفة الحقيقة هو الممارسة العملية الاجتماعية. إن وجهة نظر الممارسة العملية هي وجهة النظر الأولية والأساسية في النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة[2].

ولكن كيف تنبثق المعرفة البشرية عن الممارسة العملية ثم تعود لتخدم الممارسة العملية ؟ سيتضح لنا هذا الأمر إذا ألقينا نظرة على عملية تطور المعرفة.

الواقع أن الإنسان لا يرى في بداية عملية الممارسة العملية سوى ظواهر الأشياء وجزئياتها والروابط الخارجية التي تربط بينها. ومثال ذلك أن بعض الزوار يحضرون يانآن للوقوف على الأحوال فيها. ففي الأيام الأولى يرون موقعها وشوارعها ومبانيها ويقابلون عدداً كبيراً من الناس ويحضرون الولائم والحفلات المسائية والاجتماعات الجماهيرية ويسمعون أحاديث مختلفة ويقرأون وثائق متعددة __ كل هذه هي ظواهر الأشياء وجزئياتها والروابط الخارجية التي تربط بينها. وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الحسية من المعرفة ، أي مرحلة الإحساسات والانطباعات. وهذا يعني أن هذه الأشياء المعينة في يانآن تترك أثراً في حواس السادة أعضاء الوفد الزائر وتثير أحاسيسهم وتترك في أذهانهم انطباعات عديدة وصورة عامة عن الروابط الخارجية بين هذه الانطباعات ، هذه هي المرحلة الأولى من المعرفة. ولا يستطيع الإنسان بعد في هذه المرحلة تكوين مفاهيم عميقة ولا استخلاص نتائج منطقية.

وباستمرار الممارسة العملية الاجتماعية ، تتكرر مراراً الأشياء التي تترك أحاسيس وانطباعات في حواس الإنسان في مجرى ممارسته العملية ، وعندئذ يحدث في ذهن الإنسان تبدل مفاجئ (قفزة) في عملية المعرفة وتتكون المفاهيم. فعند ذلك لم تعد المفاهيم ظواهر الأشياء ولا جزئياتها ولا الروابط الخارجية التي تربط بينها ، بل هي إدراك تام لجوهر الأشياء وكلياتها وروابطها الداخلية. إن المفهوم والإحساس لا يختلفان كمياً فحسب بل كيفياً أيضاً. وإذا مضى الإنسان على هذا النحو واستخدم طريقة الحكم والاستدلال استطاع أن يتوصل إلى استنتاجات تتفق مع المنطق. إن عبارة "قطب حاجبيه فتفتق ذهنه عن حيلة" التي نقرأها في "قصة الممالك الثلاث"[3] ، و"التفكير" في عبارة "دعني أفكر" في لغتنا المتداولة تعبران عن عملية الحكم والاستدلال التي يقوم بها

الإنسان في عقله مستعيناً بالمفاهيم. وهذه هي المرحلة الثانية من المعرفة. إن السادة أعضاء الوفد الزائر ، بعد أن يجمعوا معلومات مختلفة و "يفكروا فيها" ، يستطيعون أن يتوصلوا إلى الحكم التالي: "إن سياسة الجبهة الوطنية المتحدة ضد اليابان التي يدعو إليها الحزب الشيوعي هي سياسة حازمة وصادقة وحقيقية". وبعد التوصل إلى هذا الحكم يمكنهم ، إذا كانوا مخلصين كذلك للوحدة من أجل إنقاذ الوطن ، أن يتقدموا خطوة أخرى ويصلوا إلى هذه النتيجة: "إن في استطاعة الجبهة الوطنية المتحدة ضد اليابان أن تتكلل بالنجاح." إن مرحلة تكوين المفاهيم والحكم والاستدلال هي مرحلة أكثر أهمية في كل عملية المعرفة البشرية بشيء ما ، وهي مرحلة المعرفة العقلية. إن المهمة الحقيقية للمعرفة تكمن في التقدم إلى التفكير عن طريق الإحساس وإلى الإدراك التدريجي للتناقضات الكامنة في داخل الأشياء الموضوعية ولقوانينها والروابط الداخلية التي تربط بين عملية وأخرى ، أي التوصل إلى المعرفة المنطقية. دعوني أكرر: إن السبب في اختلاف المعرفة المنطقية عن المعرفة الحسية يعود إلى أن المعرفة الحسية تتعلق بجزئيات الأشياء وظواهرها وروابطها الخارجية ، في حين أن المعرفة المنطقية تتقدم بالمعرفة الحسية خطوة كبيرة إلى الأمام فتتوصل إلى إدراك كليات الأشياء وجوهرها وروابطها الداخلية وتكتشف التناقضات الكامنة في العالم الخارجي ، وبهذا فإن المعرفة المنطقية تتمكن من تفهم تطور العالم الخارجي في مجموعه وفي الروابط الداخلية بين جميع جوانبه.

إن هذه النظرية المادية الديالكتيكية عن عملية تطور المعرفة ، التي تقوم على أساس الممارسة العملية ، والقائلة بتطور المعرفة من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة ، لم يتوصل إليها أحد على هذا النحو قبل ظهور الماركسية. ولقد حلت نظرية المادية الماركسية لأول مرة هذه المشكلة حلاً صحيحاً ، إذ بينت بأسلوب مادي وديالكتيكي حركة تعمق المعرفة ، حركة تقدم الإنسان ، ككائن اجتماعي ، من المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية خلال ممارساته العملية المعقدة والمتكررة باستمرار في الإنتاج والصراع الطبقي. قال لينين: "إن تجريدات المادة وأحد قوانين الطبيعة والقيمة ..الخ ، وباختصار كل تجريد علمي (صحيح وجدي وليس باطلاً) ، ليعكس الطبيعة بصورة أعمق و أصدق وأكمل."[(4)]

إن الماركسية اللينينية ترى أن لكل من مرحلتي عملية المعرفة خصائصها ، وهي أن المعرفة في مرحلتها الدنيا تتميز بأنها حسية ، وفي مرحلتها العليا تتميز بأنها منطقية ، ومع ذلك فكلتاهما مرحلة في عملية واحدة من المعرفة. إن الإحساس والعقل يختلفان من حيث الطبيعة ولكن لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، إنهما موحدان على أساس الممارسة العملية. إن ممارستنا العملية تثبت أن ما نحسه لا يمكن أن ندركه على الفور ، وأن ما ندركه هو وحده الذي يمكن أن نحسه بصورة أعمق. إن الإحساس لا يحل سوى مسألة الظواهر ، والنظرية وحدها تستطيع حل مسألة الجوهر. بيد أن هاتين المسألتين لا يمكن حلهما بأي حال من الأحوال بمعزل عن الممارسة العملية. فإذا أراد أي شخص أن يفهم أي شيء من الأشياء ، فليس له من سبيل إلى ذلك سوى الاحتكاك بهذا الشيء ، أي العيش (الممارسة العملية) في محيطه. فقد كان من المستحيل على المرء أن يدرك مقدماً قوانين المجتمع الرأسمالي وهو يعيش في المجتمع الإقطاعي ، إذ أن الرأسمالية لم تكن قد ظهرت بعد ، ولذلك فإن الممارسة العملية التي تتفق معها لم تكن قد وجدت أيضاً. إن الماركسية لا يمكن أن تظهر إلى الوجود إلا كنتاج للمجتمع الرأسمالي. ولم يكن بمقدور ماركس ، في عصر الرأسمالية الحرة ، أن يدرك مقدماً وبصورة محددة بعض القوانين الخاصة بعصر الإمبريالية ، إذ أن الإمبريالية __آخر مراحل الرأسمالية__ لم تكن قد ظهرت بعد إلى حيز الوجود ، وكذلك الممارسة العملية التي تتفق معها لم تكن قد ظهرت بعد ، فكان في استطاعة لينين وستالين وحدهما الاضطلاع بهذه المهمة. إذا استثنينا شرط العبقرية فإن السبب الرئيسي في قدرة ماركس وانجلز ولينين وستالين على صياغة نظرياتهم يعود إلى مساهمتهم شخصياً في ممارسة الصراع الطبقي والتجربة العلمية في زمانهم. ولولا وجود هذا الشرط الأخير لما استطاع أي عبقري أن يحرز النجاح. إن القول السائر "يستطيع المثقف أن يعرف كل ما يجرى في العالم دون أن يتخطى عتبة داره" ، كان في العصور القديمة المتأخرة تكنيكياً ليس إلا عبارة جوفاء بعيدة عن الواقع ، أما في عصرنا المتطور تكنيكياً ، فعلى الرغم من أن هذا القول قد يصبح حقيقة واقعة ، إلا أن الذين يملكون المعرفة المباشرة الحقيقية هم من ينخرطون في الممارسة العملية من سكان العالم. يكتسب هؤلاء الناس "المعرفة" خلال ممارستهم العملية ثم تنقل إلى "المثقف" بواسطة الكتابة والوسائل التكنيكية ، وعندئذ فقط يستطيع المثقف أن "يعرف كل ما يجري في العالم" بطريقة غير مباشرة. وإذا ما أردت أن تعرف بصورة مباشرة شيئاً من الأشياء أو عدة أشياء ، فلابد لك أن تساهم شخصياً في النضال العملي الذي يهدف إلى تغيير الواقع __تغيير ذلك الشيء أو تلك الأشياء ، وعندئذ تستطيع أن تحتك بظواهر ذلك الشيء أو تلك الأشياء ، كما أنك لا

تستطيع أن تكشف وتفهم جوهر ذلك الشيء أو تلك الأشياء إلا عن طريق المساهمة الشخصية في النضال العملي الذي يهدف إلى تغيير الواقع. هذه هي طريق المعرفة التي يسلكها كل امرئ بالفعل ، غير أن بعض الناس يزعمون عكس ذلك عامدين إلى تشويه الأمور. وأكثر الناس مدعاة للسخرية هو "العالم" الذي ما أن يلتقط فتاتاً من المعرفة عن طريق السماع حتى يعتبر نفسه "العلامة الفريد في العالم" ، وهو أمر لا يدل إلا على عجزه عن تقدير نفسه تقديراً صحيحاً. إن المعرفة هي مسألة علم ، فلا يجوز أن يصاحبها أدنى شيء من الكذب والغرور ، بل المطلوب هو العكس بكل تأكيد أي الصدق والتواضع. إذا أردت اكتساب المعرفة فلابد أن تشارك في الممارسة العملية التي تهدف إلى تغيير الواقع ، فإذا رغبت في معرفة طعم الكمثرى فلابد أن تغير الكمثرى ، أي تأكلها بنفسك ، وإذا أردت أن تعرف تركيب الذرة وخصائصها فلابد أن تقوم بتجارب فيزيائية وكيميائية بغية تغيير حالة الذرة ، وإذا أردت أن تعرف نظرية الثورة وطرائقها فلا بد أن تشترك في الثورة. إن جميع المعارف الحقة تنبع من التجربة المباشرة. ولكن يستحيل على المرء أن يجرب كل شيء تجربة مباشرة ، والواقع أن معظم معارفنا قد حصلنا عليها من التجربة غير المباشرة ، وأعني بها كل المعارف المكتسبة في العصور القديمة والبلدان الأجنبية. وهذه المعارف مكتسبة من التجربة المباشرة عند القدامى والأجانب فإذا كانوا اكتسبوها في مجرى تجربتهم المباشرة على نحو متفق مع شرط "التجريد العلمي" الذي تحدث عنه لينين وكانت تعكس الأشياء الموضوعية بصورة علمية ، فهي معارف يركن إليها ، وإلا فهي ليست كذلك. وهكذا فإن معرفة الإنسان لا تعدو هذه القسمين: التجربة المباشرة والتجربة غير المباشرة. وفضلاً عن ذلك فإن ما هو تجربة غير مباشرة عند شخص معين هو عند غيره تجربة مباشرة. وهكذا فإن المعرفة من أي نوع كانت ، إذا اعتبرنا المعرفة ككل ، لا يمكن أن تنفصل عن التجربة المباشرة. إن كل معرفة هي تنبع من إحساس الإنسان بالعالم الموضوعي بواسطة حواسه. ومن ينكر الإحساس وينكر التجربة المباشرة وينكر المساهمة الشخصية في الممارسة العملية الرامية إلى تغيير الواقع ، فهو ليس بمادي. وهذا هو السبب في أن "العالم" يبعث على السخرية. وهناك مثل صيني قديم يقول: "كيف تستطيع أن تحصل على أشبال النمر إذا لم تدخل عرينه ؟" وهذا القول يعتبر حقيقة تنطبق على الممارسة العملية التي يباشرها الإنسان ، وكذلك على نظرية المعرفة .. فلا يمكن أن تكون هناك معرفة منعزلة عن الممارسة العملية.

وفي سبيل إيضاح حركة المعرفة المتفقة مع المادية الديالكتيكية والقائمة على أساس الممارسة العملية التي تهدف إلى تغيير الواقع _حركة التعمق المتدرج للمعرفة_ نقدم فيما يلي بضعة أمثلة محددة أخرى.

فيما يتعلق بمعرفة المجتمع الرأسمالي فإن البروليتاريا ، خلال الفترة الأولى من ممارستها العملية_ فترة تخريب الآلات والنضال العفوي ، كانت لا تزال في مرحلة المعرفة الحسية ، إذ لم تكن قد عرفت سوى بعض الجوانب والروابط الخارجية لظواهر الرأسمالية. وفي ذلك الوقت كانت البروليتاريا لا تزال "طبقة في ذاتها". ولكن حينما بلغت هذه الطبقة الفترة الثانية من ممارستها العملية _فترة النضال الاقتصادي والنضال السياسي الواعيين والمنظمين ، تمكنت من إدراك جوهر المجتمع الرأسمالي وعلاقات الاستغلال بين الطبقات الاجتماعية ومهمة البروليتاريا التاريخية ، بفضل ممارستها العملية وتجاربها المكتسبة في نضالات طويلة الأمد ، وبفضل تثقفها بالنظرية الماركسية التي هي نتاج لما قام به ماركس وانجلز من تلخيص لهذه التجارب المتنوعة وفق أسلوب علمي ، وعندئذ أصبحت هي "طبقة لذاتها".

وينطبق نفس الحال على معرفة الشعب الصيني بالامبريالية. فقد كانت المرحلة الأولى من معرفته بها مرحلة معرفة حسية وسطحية تجلت في نضالاته المنطلقة من كراهيته للأجانب دون تمييز كحركة مملكة التايبينغ السماوية[5] وحركة يى خه توان[6] وغيرهما من الحركات. ولم يبلغ الشعب الصيني مرحلة المعرفة العقلية إلا في المرحلة الثانية عندما اتضحت له مختلف التناقضات الداخلية والخارجية للامبريالية ، وتجلت له حقيقة تحالف الإمبريالية مع الطبقة الكومبرادورية والطبقة الإقطاعية في الصين في سبيل امتصاص دماء الجماهير الغفيرة من الشعب الصيني. ولم تبدأ هذه المعرفة إلا أيام ما قبل حركة 4 مايو (أيار) 1919 [7] وما بعدها.

ولننظر الآن إلى الحرب. إذا كان أولئك الذين يوجهون عمليات الحرب يفتقرون إلى الخبرة العسكرية فإنهم لن يفهموا في المرحلة البدائية القوانين المتسمة بالعمق والتي تتحكم في حرب معينة (مثل حرب الثورة الزراعية التي خضناها في السنوات العشر المنصرمة). فهم لا يمرون في المرحلة البدائية إلا بتجارب معارك عديدة بل ويتعرضون كثيراً للهزائم. ولكن هذه التجارب (تجارب

المعارك الظافرة وعلى الأخص تجارب المعارك الخاسرة) سوف تمكنهم من أن يدركوا ما يكمن في تلك التجارب كلها ويتحكم فيها ، أي قوانين تلك الحرب المعينة ، ويفهموا ما يجب اتخاذه من إستراتيجية وتكتيك ، وبالتالي يستطيعون أن يوجهوا هذه الحرب بقلوب مفعمة بالثقة. وإذا ما حل محلهم في مثل هذا الوقت أشخاص آخرون عديمو الخبرة لتوجيهها ، فإنهم لن يستطيعوا هم الآخرون أن يفهموا القوانين الحقيقية للحرب إلا بعد ما يعانون عدداً من الهزائم (أي بعد ما يكتسبون خبرة).

كثيراً ما نسمع بعض الرفاق يقول حينما لا يجرؤ على قبول عمل يوكل إليه: "لا أملك الثقة". ولم لا يملك الثقة ؟ لأنه لا يفهم مضمون هذا العمل وظروفه بصورة منتظمة ، أو لأنه لم يحتك بهذا النوع من العمل مطلقاً أو لم يحتك به إلا قليلاً ، وبالتالي فلا يستطيع التحدث عن القوانين التي تتحكم في هذا العمل. فإذا حللت له طبيعة العمل وظروفه تحليلاً مفصلاً فإنه سيكتسب نوعاً من الثقة ويرغب في القيام به. ثم إذا اكتسب هذا الشخص تجربة بشأن هذا العمل بعد أن قام به فترة من الزمن ، وكان فضلاً عن ذلك يجهد في النظر إلى الأمور بدون تحيز أو تعصب ، وليس ممن ينظرون إلى القضايا وفقاً لتصوراتهم الذاتية ومن زاوية واحدة وبصورة سطحية ، فسوف يستطيع أن يستخلص بذاته النتائج بشأن كيفية القيام بعمله ، وعندئذ ستزداد جرأته على العمل لدرجة كبيرة. إن الذين ينظرون إلى الأمور وفقاً لتصوراتهم الذاتية ومن زاوية واحدة وبصورة سطحية هم وحدهم الذين ما أن يصلوا إلى مكان ما حتى يتسرعوا ، مستبدين بآرائهم ، في إصدار الأوامر والتوجيهات حول أمر من الأمور دون أن ينظروا إلى الظروف المحيطة بذلك الأمر ولا إلى الأمر في مجموعه (أي إلى تاريخه ووضعه الراهن من جميع جوانبه)، وقبل أن يصلوا إلى جوهر الأمر (أي طبيعته والروابط الداخلية بينه وبين الأمور الأخرى)، إن أمثال هؤلاء لابد أن يتعثروا ويسقطوا.

وهكذا نجد أن الخطوة الأولى في عملية المعرفة هي الاحتكاك بالأشياء الموجودة في العالم الخارجي ، وهذه هي مرحلة الإحساس. أما الخطوة الثانية فهي تجميع المعطيات الحسية وترتيبها وصهرها ، وهذه هي مرحلة تكوين المفاهيم والحكم والاستدلال. ونحن لا نستطيع تكوين مفاهيم صائبة والتوصل إلى منطق سليم على أساس المعطيات الحسية إلا إذا كانت هذه المعطيات غنية جداً (ليست جزئية أو ناقصة) ومتفقة مع الواقع (ليست وهمية أو كاذبة).

وينبغي هنا أن نركز على نقطتين هامتين ، فأولاهما قد ذكرت فيما سبق ولكن يجب تكرارها هنا ، ألا وهي مسألة توقف المعرفة العقلية على المعرفة الحسية ، فمن يحسب أنه يمكن للمعرفة العقلية ألا تنبع من المعرفة الحسية فهو مثالي. وفي تاريخ الفلسفة يوجد ما يدعى بـ"المذهب العقلي" الذي يعترف فقط بحقيقة العقل ولا يعترف بحقيقة التجربة إذ يعتبر أن العقل وحده يمكن الركون إليه ، أما التجربة الحسية فلا يمكن الركون إليها. إن خطأ هذا المذهب يكمن في أنه قلب الحقائق رأساً على عقب. وكون المعرفة العقلية يمكن الركون إليها يعود ، على وجه التحديد ، إلى أنها نابعة من الإدراك الحسي ، وإلا لأصبحت ماء دون ينبوع أو شجرة دون جذور ، شيئاً إنما نشأ في ذهنه بصورة عفوية ، شيئاً لا يمكن الركون إليه. وإذا نظرنا إلى تسلسل عملية المعرفة وجدنا التجربة الحسية تأتي أولاً ، والسبب في أننا نشدد على أهمية الممارسة العملية الاجتماعية في عملية المعرفة يعود بالضبط إلى أن الممارسة العملية الاجتماعية وحدها تمكن الإنسان من البدء في تحصيل المعرفة وتحصيل التجربة الحسية من العالم الموضوعي. أما المرء الذي ينفصل كلياً عن العالم الموضوعي مغمضاً عينيه وساداً أذنيه ، فلا يمكن أن تكون لديه أية معرفة. إن المعرفة تبدأ مع التجربة وهذه هي المادية حول نظرية المعرفة.

أما النقطة الثانية فهي حاجة المعرفة إلى التعمق ، أي حاجة المعرفة إلى التطور من المرحلة الحسية إلى مرحلة عقلية - هذا هو الديالكتيك حول نظرية المعرفة[8]. فإذا ظن المرء أن المعرفة يمكن أن تتوقف عند المرحلة الحسية ، وهي مرحلة دنيا ، وأن المعرفة الحسية هي وحدها التي يعتمد عليها من دون المعرفة العقلية ، فإن هذا يعني تكراراً لأخطاء "المذهب التجريبي" في الماضي. إن أخطاء هذه النظرية تكمن في عجزها عن فهم الحقيقة التالية: على الرغم من أن المعطيات الحسية تعكس بعض الحقائق في العالم الموضوعي (لا أتحدث هنا عن المذهب التجريبي المثالي الذي يقصر التجربة على ما يدعى بالتأمل الباطني)، إلا أنها مجرد معطيات جزئية وسطحية لا تعكس الأشياء بصورة كاملة ، معطيات لا تعكس جوهر الأشياء. فلكي يعكس شيء بكامله ويعكس جوهره وقوانينه الباطنية ، لا بد من صهر تلك المعطيات الحسية الغنية عن طريق التفكير باستبعاد ما هو قليل الأهمية منها واستخلاص ما هو عظيم النفع ، ونبذ الكاذب منها وإبقاء الصحيح المعتمد عليه ، ثم الربط بين هذه المعطيات والنفوذ من ظواهر الأشياء إلى دخائلها وخفاياها ، وذلك لأجل تكوين مفاهيم ونظريات في شكل منسق ، أي لابد من تحقيق قفزة من المعرفة

الحسية إلى المعرفة العقلية. وأن هذه المعرفة التي تم صهرها لم تصبح معرفة أكثر بعداً عن الواقع وأقل أهلية لأن يركن إليها ، بل هي على نقيض ذلك إذ أن كل ما تم صهره خلال عملية المعرفة بصورة علمية وعلى أساس الممارسة العملية هو كما قال لينين ، يعكس الواقع الموضوعي بصورة أعمق وأصدق وأكمل. أما أصحاب العمل الروتيني الضيقو التفكير فهم يتصرفون عكس ذلك ، إذ أنهم يقدسون التجربة بينما يحتقرون النظرية ، ونتيجة لهذا يعجزون عن إدراك العملية الموضوعية ككل فيفتقرون إلى الاتجاه الواضح والنظرة البعيدة المدى ، ويرتضون بالنجاحات الوقتية والنظرات الضيقة. وإذا قام أمثال هؤلاء بتوجيه الثورة فسيقودونها إلى زقاق مسدود.

إن المعرفة العقلية تعتمد على المعرفة الحسية ، والمعرفة الحسية في حاجة إلى التطور إلى معرفة عقلية ، هذه هي النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة. وفي مجال الفلسفة ، يعجز كل من "المذهب العقلي" و "المذهب التجريبي" عن إدراك الصفة التاريخية أو الديالكتيكية للمعرفة ، وعلى الرغم من أن كلا منهما يحتوي على جانب من الحقيقة (والمقصود هنا المذهب العقلي والمذهب التجريبي الماديان لا المثاليان) ، فكلاهما خاطئ في مجال نظرية المعرفة في مجموعها. إن حركة تطور المعرفة من المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلية هذه الحركة المتفقة مع المادية الديالكتيكية ، تنطبق على عملية صغيرة من المعرفة (مثلاً معرفة شيء من الأشياء أو عمل من الأعمال) ، وكذلك تنطبق على عملية كبيرة من المعرفة (مثلاً معرفة مجتمع من المجتمعات أو ثورة من الثورات).

بيد أن حركة المعرفة لا تتوقف عن هذا الحد. فإذا ما توقفت الحركة المادية الديالكتيكية الخاصة بالمعرفة عند المرحلة العقلية ، فإنها لم تتناول من المشكلة إلا نصفها. وهي عند الفلسفة الماركسية لم تتناول إلا ذلك النصف الذي لا يتمتع بأهمية عظمى. إن الفلسفة الماركسية تعتبر أن المسألة البالغة الأهمية ليست في معرفة قوانين العالم الموضوعي وبالتالي في اكتساب القدرة على تفسيره ، بل هي في استخدام هذه المعرفة في تبديل العالم بصورة فعالة. فالنظرية من وجهة النظر الماركسية هي مهمة ، وتتجلى أهميتها في قول لينين: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية."[9] ولكن السبب في أن الماركسية تؤكد على أهمية النظرية يعود بالضبط ، بل يعود فقط إلى أنها تستطيع توجيه العمل. فإذا كنا نملك نظرية صحيحة ونكتفي بأن نجعل منها موضوعاً لأحاديث لا طائل منها أو نضعها على الرف ولا نطبقها عملياً ، فستصبح هذه النظرية ، مهما كانت سديدة ، عديمة الأهمية. إن المعرفة تبدأ من الممارسة العملية ، والمعرفة النظرية التي يتم اكتسابها عن طريق الممارسة العملية ، يجب أن تعاد إلى الممارسة العملية مرة أخرى. إن الدور الفعال للمعرفة لا يتجلى في القفزة الفعالة من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية فحسب ، بل ينبغي أن يتجلى أيضاً — وهذا أكثر أهمية- في القفزة من المعرفة العقلية إلى الممارسة العملية الثورية. إن المعرفة التي تمكننا من استيعاب قوانين العالم يجب أن تعاد لتطبق في ممارسة الإنتاج وفي ممارسة الصراع الطبقي الثوري والنضال الوطني الثوري وكذلك في ممارسة التجارب العملية. هذه هي عملية اختبار النظرية وتطويرها ، هي تكملة لعملية المعرفة. إن مسألة ما إذا كانت نظرية ما منطبقة مع الحقائق الموضوعية أو لا ، لم تحل تماماً ، ولا يمكن أن تحل تماماً ، أثناء حركة تطور المعرفة من المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلية التي تحدثنا عنها آنفاً. والطريقة الوحيدة لحل هذه المسألة حلاً تاماً هي إعادة المعرفة العقلية إلى الممارسة العملية الاجتماعية ، وتطبيق النظرية على الممارسة العملية ، لمعرفة ما إذا كانت هذه النظرية توصلنا إلى الهدف المنشود. إن كثيراً من نظريات العلوم الطبيعية تعتبر حقائق ، ليس فقط لأنها اعتبرت هكذا عندما وضعها العلماء الطبيعيون ، بل لأن الممارسة العملية العلمية دلت بعد ذلك على صحتها أيضاً. وكذلك تعتبر الماركسية اللينينية حقيقة ، ليس فقط لأنها اعتبرت هكذا عندما صاغ تعاليمها ماركس وانجلز ولينين وستالين بطريقة علمية ، بل كذلك لأن الممارسة العملية للصراع الطبقي الثوري والنضال الوطني الثوري قد أثبتت صحتها فيما بعد. إن المادية الديالكتيكية حقيقة عامة ، ذلك لأنه ما من أحد يستطيع في ممارسته العملية الخروج عن إطارها. ويدلنا تاريخ المعرفة البشرية على أن كثيراً من النظريات كانت ناقصة إذا اعتبرت حقائق ، بيد أن هذا النقص أصلح عن طريق اختبارها في الممارسة العملية. ولهذا السبب بالذات نقول أن الممارسة العملية هي مقياس الحقيقة ، وأن "وجهة نظر الحياة والممارسة العملية ، يجب أن تكون وجهة النظر الأولية والأساسية في نظرية المعرفة"[10]. لقد أصاب ستالين عندما قال: "إن النظرية تصبح عديمة الهدف إذا لم ترتبط بالممارسة العملية الثورية ، وكذلك شأن الممارسة العملية فإنها ستصبح ممارسة على غير هدى إذا لم تنر طريقها نظرية ثورية."[11]

فهل تكتمل حركة المعرفة عند هذا الحد؟ إن جوابنا هو الإيجاب والنفي. فحين يباشر أفراد المجتمع الممارسة العملية بهدف تغيير عملية موضوعية محددة (طبيعية كانت أم اجتماعية) في مرحلة معينة من تطورها، يستطيعون، نتيجة لانعكاس العملية الموضوعية في أذهانهم وبفعل فعاليتهم الذاتية، أن يدفعوا معرفتهم من المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلية، وأن يكونوا أفكاراً ونظريات ويضعوا خططاً ومشاريع تتفق على وجه العموم مع قوانين تلك العملية الموضوعية، ثم يضعون هذه الأفكار والنظريات والخطط والمشاريع موضع التنفيذ في نفس العملية الموضوعية، فإذا نجحوا في تحقيق الأهداف المنشودة، أي إذا استطاعوا، أثناء الممارسة في نفس هذه العملية، أن يحولوا ما صاغوه سلفاً من الأفكار والنظريات والخطط والمشاريع إلى حقائق واقعة، أو استطاعوا ذلك بصورة عامة، يمكن عندئذ أن تعتبر حركة المعرفة مكتملة بالنسبة لهذه العملية المعينة. مثال ذلك انجاز مشروع هندسي أو إثبات افتراض علمي أو صنع آلة أو حصاد غلة زراعية في مجرى تغيير الطبيعة؛ وإنجاح إضراب أو انتصار حرب أو انجاز خطة تعليمية في مجرى تغيير المجتمع، وكل ذلك يمكن اعتباره تحقيقاً للأهداف المنشودة. ولكن يندر على وجه العموم أن تتحقق الأفكار والنظريات والخطط والمشاريع التي صاغها الناس سلفاً، دون أدنى تغيير، سواء أكان ذلك عند الممارسة العملية الرامية إلى تغيير الطبيعة أم تغيير المجتمع. والسبب في هذا يعود إلى أن الذين يباشرون تغيير الواقع يخضعون عادة لكثير من القيود، فهم مقيدون عادة لا بالإمكانيات العلمية والتكنيكية فحسب، بل هم مقيدون كذلك بدرجة تطور العملية الموضوعية وانكشافها (أي أن أوجه العملية الموضوعية وجوهرها لم تكشف بعد بصورة تامة). وفي مثل هذه الحال، كثيراً ما يحدث أن تعدل الأفكار والنظريات والخطط والمشاريع تعديلاً جزئياً بل تعديلاً كلياً في بعض الأوقات، وذلك بسبب اكتشاف الناس خلال الممارسة العملية أوضاعاً لم يتوقعوها سلفاً. وهذا يعني أن هناك حالات تتعارض فيها الأفكار والنظريات والخطط والمشاريع الأصلية مع الواقع جزئياً أو كلياً، وهي لذلك خاطئة جزئياً أو كلياً. ولا بد في كثير من الحالات أن يتكرر الإخفاق مرات عديدة قبل إمكان تصحيح الأخطاء في المعرفة وجعل هذه المعرفة تتفق مع قوانين العملية الموضوعية بحيث يمكن تحويل الشيء الذاتي إلى شيء موضوعي، أي تحقيق النتائج المنشودة خلال الممارسة العملية. وعلى كل حال فإن حركة معرفة الناس لعملية موضوعية محددة في مرحلة معينة من تطورها يمكن أن تعتبر مكتملة في هذا الوقت.

ولكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تقدم العملية فإن حركة معرفة الناس لا تكتمل عند هذا الحد. فكل عملية، سواء أكانت في الطبيعة أم في المجتمع، تتقدم وتتطور بفعل تناقضاتها الداخلية والصراعات الناتجة عنها، ولا بد لحركة المعرفة البشرية أن تتقدم وتتطور أيضاً وفقاً لذلك. وفيما يتعلق بالحركات الاجتماعية فإن يجب على القادة الثوريين الحقيقيين أن يحسنوا تصحيح أفكارهم ونظرياتهم وخططهم ومشاريعهم حين تبرز فيها الأخطاء، كما قلنا آنفاً، وليس هذا فحسب بل عليهم كذلك، كلما تقدمت عملية موضوعية معينة وتحولت من مرحلة إلى مرحلة أخرى من مراحل التطور، أن يقدروا على تمكين أنفسهم وجميع المشتركين في الثورة من التقدم والتحول في معرفتهم الذاتية وفقاً لذلك، أي يجب عليهم أن يضعوا مهمات ثورية جديدة وبرامج عمل جديدة وفقاً للتبدلات الجديدة التي تطرأ على الوضع. إن الوضع يتبدل سريعاً في الفترات الثورية، فإذا لم تتبدل معرفة الثوريين بسرعة وفقاً لذلك فلن يكون في استطاعتهم قيادة الثورة إلى النصر.

بيد أنه كثيراً ما يحدث أن يتخلف التفكير عن الواقع، والسبب في ذلك يعود إلى أن معرفة الإنسان مقيدة بظروف اجتماعية عديدة. إننا نعارض المتعنتين في صفوف الثورة، إذ أن تفكيرهم يعجز عن مجاراة تغيرات الظروف الموضوعية فأظهروا أنفسهم تاريخياً في صورة الانتهازية اليمينية. إن هؤلاء الناس لا يدركون أن صراع التناقضات قد دفع العملية الموضوعية إلى الأمام، فبقيت معرفتهم في مرحلتها القديمة. هذه هي الخاصية الملازمة لتفكير جميع المتعنتين. وبما أن تفكيرهم ينفصل عن الممارسة العملية الاجتماعية، فلا يمكنهم أن يتقدموا ليقودوا عجلة المجتمع، وكل ما يمكنهم عمله هو أن يتخلفوا وراء العجلة متذمرين من سرعتها الفائقة ومحاولين جرها إلى الوراء أو تحويلها في الاتجاه المعاكس.

ونحن نعارض كذلك ثرثرة "اليساريين" الفارغة. إذ أن تفكيرهم يتخطى المرحلة المعينة من مراحل تطور العملية الموضوعية، فيحسب بعضهم الأوهام التي يحملونها كأنها حقائق، وآخرون منهم يتكلفون في الوقت الحاضر تحقيق مثل أعلى لا يمكن أن يتحقق إلا في المستقبل، منعزلين عن الممارسة العملية الراهنة التي تباشرها غالبية الناس وعن الواقع الحالي، ويتجسد تفكيرهم هذا عملياً في صورة المغامرة.

إن المثالية والمادية الميكانيكية والانتهازية والمغامرة تتميز جميعها بفصل التفكير الذاتي عن الواقع الموضوعي ، وفصل المعرفة عن الممارسة العملية. فلا يسع النظرية الماركسية اللينينية عن المعرفة التي تتميز بالممارسة الاجتماعية العلمية إلا أن تعارض هذه الإيديولوجيات الخاطئة معارضة حازمة. إن الماركسيين يعترفون بأن تطور كل عملية محددة ضمن نطاق عملية التطور العام المطلق للكون هو تطور نسبي ، ولهذا فإن معرفة الناس بكل عملية محددة أثناء مرحلة معينة من التطور لا يمكن أن تكون سوى حقيقة نسبية في مجرى الحقيقة المطلقة اللامحدود. إن مجموع الحقائق النسبية التي لا حصر لها يشكل الحقيقة المطلقة[12]. إن تطور العملية الموضوعية تطور مليء بالتناقضات والصراعات وكذلك شأن تطور حركة المعرفة البشرية. وإن جميع الحركات الديالكتيكية في العالم الموضوعي يمكن أن تنعكس عاجلاً أم آجلاً في المعرفة البشرية. ونظراً لأن عملية النشوء والتطور والفناء في الممارسة العملية الاجتماعية هي عملية لامتناهية ، فإن عملية النشوء والتطور والفناء في المعرفة البشرية هي أيضاً كذلك. وبما أن الممارسة العملية التي يقوم بها الناس لتغيير الواقع الموضوعي وفقاً لأفكار ونظريات وخطط ومشاريع معينة هي في تقدم مستمر ، فإن معرفتهم بالواقع الموضوعي تتعمق كذلك أكثر فأكثر. ونظراً لأن حركة التغيير في عالم الواقع الموضوعي لا تنتهي أبداً ، فإن المعرفة التي يكتسبها الناس عن الحقيقة خلال ممارستهم العملية لا تنتهي أبداً كذلك. إن الماركسية اللينينية لم تختتم الحقيقة ، بل إنها تشق دون توقف الطريق لمعرفة الحقيقة خلال الممارسة العملية. والنتيجة التي استخرجناها هي الوحدة التاريخية المحددة بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي ، بين النظرية والممارسة العملية ، بين المعرفة والعمل ، وعليه فنحن نعارض كل الإيديولوجيات الخاطئة التي تنفصل عن التاريخ المحدد ، "يسارية" كانت أم يمينية.

لقد وضع التاريخ ، في المرحلة الراهنة من تطور المجتمع ، على عاتق البروليتاريا وحزبها مسؤولية معرفة العالم معرفة صحيحة وتبديل العالم. وإن عملية ممارسة تبديل العالم هذه العملية التي تم تحديدها بناء على المعرفة العلمية قد بلغت في العالم وفي الصين على حد سواء ، لحظة تاريخية عظيمة لم يشهدها تاريخ البشرية ، لحظة ستبدد فيها البشرية تماماً الظلام الذي يخيم على العالم وعلى الصين وتحل محله عالماً وضاء لم ير التاريخ مثيلاً له. إن نضال البروليتاريا والشعوب الثورية من أجل تغيير العالم يتضمن انجاز المهمات التالية: تغيير العالم الموضوعي وفي الوقت نفسه تغيير عالمهم الذاتي –تغيير مقدرتهم على اكتساب المعرفة وتغيير العلاقات بين العالم الذاتي والعالم الموضوعي. وقد بدأ تحقيق مثل هذا التغيير في جزء من الكرة الأرضية أي في الاتحاد السوفياتي. ولا يزال الشعب هناك يقوم بدفع عملية هذا التغيير إلى الأمام. أما الشعب الصيني وسائر شعوب العالم فهي بدورها تمر الآن ، أو ستمر في المستقبل ، بمثل هذه العملية. وهذا العالم الموضوعي الذي يجري تغييره يشتمل على جميع المعارضين لهذا التغيير الذين لابد أن يمروا بمرحلة من التغيير الإجباري قبل أن يدخلوا مرحلة التغيير الواعي. وعندما تبلغ البشرية جميعها مرحلة تغير فيها نفسها والعالم تغييراً واعياً ، يكون العالم قد دخل عصر الشيوعية.

اكتشاف الحقيقة عن طريق الممارسة العملية ، واثبات وتطوير الحقيقة عن طريق الممارسة العملية مرة ثانية. الانطلاق من المعرفة الحسية وتطويرها بصورة فعالة إلى المعرفة العقلية ، ثم الانطلاق من المعرفة العقلية لتوجيه الممارسة العملية الثورية بصورة فعالة في سبيل تغيير العالم الذاتي والعالم الموضوعي. الممارسة العملية ، ثم المعرفة ، والعودة إلى الممارسة العملية ثانية ، ثم المعرفة أيضاً ، وهكذا تتكرر العملية إلى ما لا نهاية له ، ومع كل دورة يرتفع مضمون الممارسة العملية والمعرفة إلى مستوى أعلى. هذه هي النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة ، وهذه هي النظرية المادية الديالكتيكية عن وحدة المعرفة والعمل.

ملاحظات

(1) لينين: "ملخص "علم المنطق" لهيجل".

(2) ماركس: "موضوعات عن فيورباخ"، ولينين: "المادية والمذهب النقدي التجريبي"، الفصل الثاني، المبحث السادس.

(3) "قصة الممالك الثلاث" هي قصة تاريخية صينية مشهورة كتبها لوه قوان تشونغ الذي عاش بين 1330 و 1400 على وجه التقريب — المعرب.

(4) لينين: "ملخص "علم المنطق" لهيجل".

(5) كانت حرب مملكة التايبينغ السماوية حرباً ثورية قام بها الفلاحون في أواسط القرن التاسع عشر لمناهضة الحكم الإقطاعي لأسرة تشينغ والاضطهاد القومي. ففي يناير (كانون الثاني) 1851، قام خونغ شيوتشيوان ويانغ شيوتشينغ وغيرهما من قادة هذه الثورة بانتفاضة قرية جينتيان في محافظة قوييينغ بمقاطعة قوانغشى، وأعلنوا تأسيس "مملكة التايبينغ السماوية". وفي عام 1852، انطلق جيشهم من قوانغشى واجتاز خونان وخوبى وجيانغشى وآنخوى، وفي عام 1853 استولى على نانكين. ثم زحف قسم من الجيش شمالاً حتى وصل قرب مدينة تيانجين. ولكن نظراً لأن جيش التايبينغ لم يؤسس قواعد متينة في المناطق التي احتلها، وأن كتلته القيادية ارتكبت بعد اتخاذ نانكين عاصمة للمملكة كثيراً من الأخطاء السياسية والعسكرية، لم يستطع صد الهجوم المشترك الذي شنته القوات المعادية للثورة والتابعة لحكومة أسرة تشينغ والغزاة البريطانيون والأمريكيون والفرنسيون، مما أدى إلى إخفاق الحركة عام 1864.

(6) كانت حرب يى خه توان حركة عفوية واسعة النطاق قامت بها جماهير الفلاحين والحرفيين بشمالي الصين عام 1900 وكافحوا فيها الإمبريالية بقوة السلاح، منظمين أنفسهم في جمعيات سرية يحيطها الكتمان والغموض. ولكنها تعرضت للقمع المتناهي الوحشية من قبل القوات المسلحة المشتركة المؤلفة من قوات ثماني دول إمبريالية بعد احتلالها لتيانجين وبكين.

(7) كانت حركة 4 مايو (أيار) حركة ثورية معادية للإمبريالية والإقطاعية، انفجرت في 4 مايو (أيار) 1919. في النصف الأول من ذلك العام، عقدت البلدان الإمبريالية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واليابان وإيطاليا وغيرها اجتماعاً في باريس لتقاسم الغنائم قررت فيه أن تستلم اليابان ما كانت ألمانيا تتمتع به من أنواع الامتيازات في مقاطعة شاندونغ الصينية. وكان طلبة بكين أول من أقاموا اجتماعات ومظاهرات في 4 مايو (أيار) حيث عبروا عن معارضتهم الحازمة لذلك القرار. ولجأت حكومة أمراء الحرب الشماليين إلى قمعهم فاعتقلت ثلاثين طالباً وأكثر، فهب طلبة بكين مضربين عن الدراسة احتجاجاً على ذلك، واستجاب لهم الطلبة في مختلف أنحاء البلاد. وفي 3 يونيو (حزيران)، بدأت حكومة أمراء الحرب الشماليين تقبض على الطلبة ببكين على نطاق أكبر، فبلغ عدد الذين ألقي القبض عليهم خلال يومين فقط حوالي ألف طالب، الأمر الذي أثار سخطاً أشد في طول البلاد وعرضها. وابتداء من 5 يونيو (حزيران)، أخذ العمال في شانغهاي ومدن كثيرة أخرى يضربون عن العمل وكذلك التجار. وهكذا تحولت الحركة الوطنية التي ساهم فيها المثقفون بصورة رئيسية في بداية الأمر تحولاً سريعاً إلى حركة وطنية اجتاحت البلاد كلها وساهمت فيها البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية. ومع تقدم هذه الحركة، تطورت كذلك حركة الثقافة الجديدة التي بدأت قبل حركة 4 مايو (أيار) والرامية إلى مناهضة الإقطاعية والداعية إلى نشر العلم وإلى الديمقراطية، وتحولت إلى حركة ثقافية ثورية عارمة محتواها الرئيسي نشر الماركسية اللينينية — المعرب.

(8) "في سبيل المعرفة ، يتوجب على المرء أن يبدأ معرفته ودراسته على أساس التجربة وأن يرتفع من التجربة إلى المعرفة العامة." انظر لينين: "ملخص "علم المنطق" لهيجل".

(9) لينين: "ما العمل ؟" ، الفصل الأول ، المبحث الرابع.

(10) لينين: "المادية والمذهب النقدي التجريبي" ، الفصل الثاني ، المبحث السادس.

(11) ستالين: "أسس اللينينية" ، القسم الثالث.

(12) لينين: "المادية والمذهب النقدي التجريبي" ، الفصل الثاني ، المبحث الخامس.

في التناقض

(أغسطس - آب – 1937)

إن قانون التناقض في الأشياء ، أي قانون وحدة الضدين هو القانون الأساسي الأول في الديالكتيك المادي. ويقول لينين: "إن الديالكتيك ، بمعناه الأصلي ، هو دراسة التناقض في صميم جوهر الأشياء."(1) وكثيراً ما أسمى لينين هذا القانون جوهر الديالكتيك ، كما أسماه لب الديالكتيك(2). وهكذا لا يمكننا ، أثناء دراسة هذا القانون ، إلا أن نتطرق إلى جوانب متعددة ، وإلى عدد كبير من قضايا الفلسفة. وإذا فهمنا جميع هذه القضايا حق الفهم استطعنا أن نفهم الديالكتيك المادي من حيث الأساس. وهذه القضايا هي: النظرتان إلى العالم ؛ وعمومية التناقض ؛ وخاصية التناقض ؛ والتناقض الرئيسي والطرف الرئيسي للتناقض ؛ والوحدة والصراع بين طرفي التناقض ؛ ومركز التعادي في التناقض.

لقد أثار النقد الذي وجهته الأوساط الفلسفية في الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة إلى مثالية مدرسة ديبورين(3) اهتماماً عظيماً لدينا. إن مثالية ديبورين قد تركت آثراً سلبياً جداً في الحزب الشيوعي الصيني ، ولا يمكن أن نقول أن أسلوب الجمود العقائدي في التفكير داخل حزبنا لا يمت بصلة إلى أسلوب هذه المدرسة. وهكذا فإن الهدف الرئيسي لدراساتنا الفلسفية في الوقت الحاضر يجب أن يكون استئصال التفكير المتسم بالجمود العقائدي.

1- نظرتان إلى العالم

خلال تاريخ المعرفة البشرية كله كانت هناك وجهتا نظر حول قوانين تطور العالم ، هما وجهة النظر الميتافيزيقية ووجهة النظر الديالكتيكية اللتان تشكلان نظرتين متضادتين إلى العالم ، ويقول لينين: "إن وجهتي النظر الأساسيتين (أو الممكنتين ؟ أو المشاهدتين تاريخياً ؟) عن التطور (الارتقاء) هما: التطور كنقصان وازدياد ، كتكرار ؛ والتطور كوحدة الضدين (انقسام الواحد إلى ضدين متعارضين تربط بينهما علاقة متبادلة)."(4) إن ما يعنيه لينين هنا هو هاتان النظرتان المختلفتان إلى العالم.

إن أسلوب التفكير الميتافيزيقي ، طوال مرحلة مديدة جداً من التاريخ في الصين وفي أوروبا على حد سواء ، والذي هو جزء من النظرة المثالية إلى العالم ، كان يحتل مركز السيطرة في الفكر البشري. وفي أوروبا كانت مادية البرجوازية في أيامها الأولى ، ميتافيزيقية هي الأخرى. وقد نشأت النظرة الديالكتيكية المادية الماركسية إلى العالم نتيجة لدخول الاقتصاد الاجتماعي في العديد من أقطار أوروبا مرحلة الرأسمالية العالية التطور ، وبلوغ القوى المنتجة والصراع الطبقي والعلوم مستوى لم يسبق له مثيل في التاريخ ، ولأن البروليتاريا الصناعية أصبحت القوة المحركة العظمى في التطور التاريخي. وعندئذ ظهر عند البرجوازية مذهب التطور المبتذل ، إلى جانب مثالية رجعية صريحة عارية الوجه تماماً ، لمقاومة الديالكتيك المادي.

ونحن نقصد بالنظرة الميتافيزيقية أو نظرة التطور المبتذل إلى العالم ، النظر إلى العالم بصورة منعزلة جامدة وحيدة الجانب. إن دعاة هذه النظرة يعتبرون أن جميع الأشياء في العالم ، جميع أشكالها وفصائلها منعزلة بعضها عن بعض إلى الأبد ، وثابتة لا تتبدل بصورة أزلية ؛ وأنه إذا كانت هناك تبدلات فإنها لا تعني سوى ازدياد أو نقصان في الكمية وتغير في المكان ؛ وأن علة هذا الازدياد أو النقصان وذلك التغير لا تقوم في باطن الأشياء نفسها ، بل تقوم خارجها ، أي بفعل قوى خارجية. ويرى الميتافيزيقيون أن الأشياء المختلفة في العالم وخصائصها ، قد بقيت على حالها منذ اللحظة التي وجدت فيها. وليس كل تبدل

- كتب الرفيق ماو تسي تونغ هذا البحث الفلسفي بعد بحثه السابق ، "في الممارسة العملية" ، وللغرض نفسه: تصحيح التفكير المتسم بالجمود العقائدي الذي كان رائجاً في الحزب بشكل خطير ، ولقد ألقى هذا البحث كمحاضرة في الكلية الحربية والسياسية المناهضة لليابان في يانآن. وقد أدخل المؤلف عليه بعض التعديلات والتنقيحات عند ضمه إلى "المؤلفات المختارة لماوتسي تونغ".

لاحق سوى ازدياد أو نقصان كمي. ويرون أن الشيء لا يمكن إلا أن يتكاثر ويتولد عنه نفس الشيء مراراً وتكراراً إلى الأبد ، ولا يستطيع مطلقاً أن يتغير إلى شيء آخر مختلف. وفي رأي الميتافيزيقيين أن الاستغلال الرأسمالي والمنافسة الرأسمالية والإيديولوجية الفردية في المجتمع الرأسمالي ، وهلم جرا ، يمكن أن نجدها في المجتمع العبودي في الزمن القديم ، بل في المجتمع البدائي ، ولن تبرح موجودة إلى الأبد دون أدنى تبديل. وحين يتحدث الميتافيزيقيون عن أسباب التطور الاجتماعي ، فإنهم يفسرونها بالعوامل الخارجة عن المجتمع ، كالبيئة الجغرافية والمناخ. ويفتشون بسذاجة خارج الأشياء نفسها عن أسباب تطورها ، وينكرون النظرية التي يقدمها الديالكتيك المادي والتي تقول أن التناقضات الكامنة في باطن الأشياء هي التي تسبب تطورها. فإنهم يعجزون بنتيجة ذلك ، عن تفسير تعدد نوعيات الأشياء ، كما أنهم يعجزون عن تفسير ظاهرة تحول نوعية معينة إلى نوعية أخرى. ولقد وجد هذا النوع من التفكير في أوربا بصورة المادية الميكانيكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبصورة مذهب التطور المبتذل في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. أما الصين ، فقد ظهر فيها التفكير الميتافيزيقي القائل أن "السماء لا تتبدل ، وداو كذلك لا يتبدل"[5] ، وقد أيدت الطبقة الحاكمة الإقطاعية المتعفنة هذا التفكير زمناً طويلاً. أما المادية الميكانيكية ومذهب التطور المبتذل المستوردان من أوربا في السنوات الأخيرة فقد أيدتهما البرجوازية.

والنظرة الديالكتيكية المادية إلى العالم ، على النقيض من النظرة الميتافيزيقية إليه ، تدعو إلى دراسة تطور الشيء من باطنه ومن حيث صلته بالأشياء الأخرى ، وذلك بمعنى أنه ينبغي النظر إلى تطور الشيء على أنه حركته الباطنية والحتمية ، وأن كل شيء يرتبط في حركته بالأشياء الأخرى التي تحيط به ويتبادل معها التأثير. فالعلة الأساسية في تطور الشيء إنما تكمن في باطنه لا خارجه ، في تناقضه الباطني. وهذا التناقض الباطني موجود في كل الأشياء وهو الذي يبعث فيها الحركة والتطور. إن هذا التناقض الكامن في باطن الأشياء هو العلة الأساسية في تطورها ، أما الصلة القائمة والتأثير المتبادل بين شيء وآخر فهي علة ثانوية. وهكذا فإن الديالكتيك المادي قد دحض بصورة قاطعة نظرية الأسباب الخارجية أو نظرية القوة الدافعة ، التي ينادي بها أنصار المادية الميكانيكية الميتافيزيقية ومذهب التطور المبتذل الميتافيزيقي. ومن الواضح أن الأسباب الخارجية الصرفة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الحركة الميكانيكية للأشياء ، أي إلى تغيرات في الحجم والكمية ، لكنها لا تستطيع أن تفسر لماذا تختلف الأشياء نوعياً ذلك الاختلاف الذي لا يمكن حصره ، ولماذا يتحول الشيء من نوعية إلى أخرى. والواقع أنه حتى الحركة الميكانيكية المسببة عن القوى الخارجية تتحقق هي الأخرى بواسطة التناقض القائم في باطن الأشياء. وكذلك فإن النمو البسيط للنباتات والحيوانات وتطورها الكمي مسببان بصورة رئيسية عن تناقضاتها الباطنية. وينطبق نفس الشيء على المجتمع ، فإن تطوره مشروط ، بصورة رئيسية ، بالأسباب الباطنية لا الخارجية. فإن ثمة بلدانا عديدة تتسم بالعوامل الجغرافية والمناخية المتماثلة تقريباً ، ومع ذلك فهي تختلف في تطورها اختلافاً بيناً ، وتتفاوت درجات تطورها تفاوتاً عظيماً. وأن تبدلات اجتماعية هائلة قد تجري في ذات البلد الواحد ، بدون أن يطرأ أي تبدل على جغرافية هذا البلد ومناخه. لقد تحولت روسيا الإمبريالية إلى الاتحاد السوفياتي الاشتراكي ، وتحولت اليابان الإقطاعية المغلقة إلى اليابان الإمبريالية ، بينما لم يطرأ أي تبدل على جغرافية هذين البلدين ومناخهما. ولقد مرت الصين الواقعة منذ زمن طويل تحت سيطرة النظام الإقطاعي ، بتبدلات عظيمة في السنوات المائة الأخيرة ، وهي الآن تتبدل في اتجاه صين جديدة حرة منعتقة ، مع أنه لم يطرأ أي تبدل على جغرافيتها ومناخها. وأن التبدلات تحدث أيضاً في جغرافية ومناخ الكرة الأرضية كلها وفي كل جزء منها ، لكنها تبدلات تافهة جداً إذا ما قورنت بالتبدلات الطارئة على المجتمع ، فالتبدلات الأولى تظهر في مدى عشرات ألوف السنين أو ملايين السنين ، بينما تظهر التبدلات الثانية في مدى آلاف السنين أو مئاتها أو عشراتها فقط ، بل حتى في مدى بضع سنين أو بضعة أشهر (كما هي الحال في زمن الثورات). ومن وجهة النظر الديالكتيكية المادية ، فإن التبدلات تنشأ في الطبيعة بصورة رئيسية عن تطور التناقضات الكامنة فيها. وتغيرات المجتمع ترجع في الأساس إلى تطور التناقضات الباطنية فيه ، وهي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ، والتناقض بين الطبقات ، والتناقض بين القديم والجديد ، وتطور هذه التناقضات هو الذي يدفع المجتمع إلى الأمام ، يدفع المجتمع الجديد لكي يقضي على المجتمع القديم. فهل يستبعد الديالكتيك المادي الأسباب الخارجية ؟ كلا. فالديالكتيك المادي يعتبر أن الأسباب الخارجية هي عامل التبدل ، والأسباب الباطنية هي أساس التبدل ، وأن الأسباب الخارجية تفعل فعلها عن طريق الأسباب الباطنية. فالبيضة تتبدل في درجة حرارة ملائمة فتصير كتكوتا ، ولكن الحرارة لا تستطيع أن تحول حجراً إلى كتكوت ، لأن لكل منهما أساساً يختلف عما للآخر. إن شعوب البلدان المختلفة يؤثر بعضها على بعض

باستمرار. ففي عصر الرأسمالية ، وعلى الأخص في عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية كان هذا التأثير والتفاعل المتبادل عظيماً جداً بين مختلف البلدان في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة. ولم تفتح ثورة أكتوبر (تشرين الأول) الاشتراكية عصراً جديداً في تاريخ روسيا فحسب ، بل في تاريخ العالم أيضاً ، وقد كان لها نفوذ على التغيرات الداخلية في الأقطار الأخرى في العالم ، كما كان لها نفوذ يتسم بالعمق بصفة خاصة على التغيرات الداخلية في الصين ، إلا أن هذه التبدلات قد حدثت عن طريق قوانين التطور الداخلي لتلك البلدان بما في ذلك الصين. إن جيشين يلتحمان في معركة ، فينتصر أحدهما وينهزم الآخر ، والنصر والهزيمة على حد سواء تقررهما أسباب باطنية. إن أحدهما ينتصر إما بسبب قوته وإما بسبب قيادته الصحيحة ، وينهزم الآخر إما بسبب ضعفه وإما بسبب أخطاء في قيادته ، فالأسباب الخارجية تفعل فعلها عن طريق الأسباب الباطنية. لقد انتصرت البرجوازية الصينية الكبيرة على البروليتاريا عام 1927 ، وذلك عن طريق الانتهازية التي كانت موجودة داخل البروليتاريا الصينية نفسها (داخل الحزب الشيوعي الصيني). فلما صفينا هذه الانتهازية ، عاودت الثورة الصينية تقدمها. ثم تعرضت الثورة الصينية من جديد لضربات قاسية من قبل العدو ، وذلك من جراء روح المغامرة التي ظهرت داخل حزبنا. فلما صفينا هذه الروح عاودت قضيتنا تقدمها مرة أخرى. من هذا نرى أنه يجب على الحزب السياسي ، كي يقود الثورة إلى الظفر ، أن يعتمد على صحة خطه السياسي وعلى صلابة تنظيمه.

إن النظرة الديالكتيكية إلى العالم قد نشأت منذ القدم في الصين وفي أوربا على حد سواء. لكن الديالكتيك في العصور القديمة كان يتصف بصفة العفوية والسذاجة ، وفي ظل الظروف الاجتماعية والتاريخية التي كانت تسود في تلك الأيام لم يكن من الممكن أن يأخذ شكل نظرية كاملة ، وهكذا عجز عن تفسير الكون تفسيراً كاملاً ، فحلت الميتافيزيقا فيما بعد محله. وقد ساهم الفيلسوف الألماني الشهير هيجل الذي عاش من أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر بخدمة عظيمة الأهمية في الديالكتيك ، لكن ديالكتيكه كان مثالي النزعة. حتى جاء ماركس وانجلز ، هذان الرائدان العظيمان للحركة البروليتارية فلخصا المنجزات الإيجابية في تاريخ المعرفة البشرية ، واستوعبا على الأخص بصورة ناقدة العناصر المعقولة في ديالكتيك هيجل ، واستنبطا النظرية العظيمة نظرية المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، عندئذ فقط حدثت ثورة عظمى لم يسبق لها مثيل في تاريخ المعرفة البشرية. ولقد طور لينين وستالين فيما بعد هذه النظرية العظيمة. وما أن دخلت هذه النظرية إلى الصين حتى سببت في الحال تبدلات عظيمة جداً في عالم الفكر الصيني.

إن هذه النظرة الديالكتيكية إلى العالم تعلم الإنسان بصورة رئيسية كيف يلاحظ ويحلل بصورة صحيحة حركة التناقض في مختلف الأشياء وكيف يستنبط على أساس هذا التحليل حلولاً للتناقضات. ولذلك فإن فهم قانون التناقض في الأشياء فهما محدداً هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلينا.

2- عمومية التناقض

تسهيلاً للبحث سأتكلم هنا عن عمومية التناقض أولاً ، وأنتقل بعد ذلك إلى خاصية التناقض. ذلك لأنه بعد اكتشاف النظرة الديالكتيكية المادية إلى العالم بواسطة مؤسسي الماركسية الكبيرين ماركس وانجلز ، وبواسطة مكملي عملهما العظيمين ، لينين وستالين ، قد طبق الديالكتيك المادي بنجاح عظيم جداً في تحليل جوانب عديدة من التاريخ البشري والتاريخ الطبيعي ، وعلى ميادين عديدة متعلقة بتحويل المجتمع والطبيعة (في الاتحاد السوفياتي على سبيل المثال) ، وأصبحت عمومية التناقض شيئاً معترفاً به لدى كثير من الناس ، ولذا فإننا لن نحتاج إلا إلى كلمات قليلة لأجل إيضاح هذه المسألة ؛ أما مسألة خاصية التناقض فإن عدداً كبيراً من الرفاق وأصحاب الجمود العقائدي منهم بصورة خاصة ، لم يفهموها بعد حق الفهم. إنهم لا يفهمون أن عمومية التناقض تكمن بالضبط في خاصية التناقض. كما لا يفهمون إلى أي درجة عظيمة تبلغ أهمية دراسة خاصية التناقض الكامنة في الأشياء المحددة التي تجابهنا في توجيه مجرى النشاط العملي الثوري أثناء تطوره. ولذا يجب أن نولي دراسة مسألة خاصية التناقض اهتماماً خاصاً ، وأن نفسح لها مجالاً كافياً لتوضيحها. لهذا السبب فإننا حين نحلل قانون التناقض في الأشياء ، سنحلل بادئ ذي بدء عمومية التناقض ، ثم نحلل باهتمام خاص خاصية التناقض ، ونعود في النهاية إلى عمومية التناقض.

إن عمومية التناقض أو صفته المطلقة ذات معنى مزدوج. فأولاً توجد التناقضات في عملية تطور جميع الأشياء ؛ وثانياً توجد حركة التناقض في عملية تطور كل شيء منذ البداية حتى النهاية.

يقول انجلز: "إن الحركة نفسها هي التناقض."(6) ويعرف لينين قانون وحدة الضدين بأنه "اعتراف (اكتشاف) بالاتجاهات المتناقضة المتعارضة المستقلة عن بعضها في جميع ظواهر الطبيعة (بما فيها الفكر والمجتمع) وعملياتها"(7). هل هذه الآراء صحيحة ؟ أجل ، إنها صحيحة. إن الاعتماد المتبادل بين طرفي كل تناقض في كل شيء معين والصراع بينهما يقرران حياة ذلك الشيء ويدفعان تطوره إلى أمام. فليس ثمة شيء ليس به تناقض ، ولولا التناقض لما وجد شيء.

إن التناقض هو أساس الأشكال البسيطة للحركة (مثلاً الحركة الميكانيكية) ، وهو بالأحرى أساس الأشكال المعقدة للحركة.

وقد أوضح انجلز عمومية التناقض بالعبارات التالية: "إذا كان التغير الميكانيكي البسيط لشيء ما من مكان لآخر ينطوي على تناقض ، فإن ذلك ينطبق بالأحرى على الأشكال الأعلى لحركة المادة ، وبخاصة على الحياة العضوية وتطورها. ... إن الحياة تعني بالتحديد وقبل كل شيء: إن الشيء الحي هو ، في كل لحظة ، ذاته ، ولكنه في نفس الوقت شيء آخر أيضاً. فالحياة إذن هي أيضاً تناقض قائم في الأشياء والعمليات ذاتها ، وهو ينشأ ويحل نفسه باستمرار ؛ وحالما يتوقف هذا التناقض تتوقف الحياة أيضاً ويحل الموت. ولقد رأينا كذلك أننا لا نستطيع في مجال التفكير أيضاً ، أن نتجنب التناقضات. وأن التناقض مثلاً بين قدرة الإنسان الكامنة فيه اللامتناهية على المعرفة ، وبين وجودها الفعلي في البشر الذين هم محددون خارجياً ويملكون معرفة محدودة ، هذا التناقض يجد حله في تعاقب لا متناه — بالنسبة إلينا على الأقل في الواقع — من الأجيال ، في التقدم الذي لا نهاية له."

"إن أحد المبادئ الأساسية للرياضيات العليا هو التناقض..."

"لكن حتى الرياضيات الدنيا تمتلئ بالتناقضات..."(8)

وكذلك أوضح لينين عمومية التناقض كما يلي: "في الرياضيات: + و - ، التفاضل والتكامل.

في الميكانيكا: الفعل ورد الفعل.

في الفيزياء: الكهرباء الموجبة والسالبة.

في الكيمياء: اتحاد الذرات وتفككها.

في العلوم الاجتماعية: الصراع الطبقي."(9)

إن الهجوم والدفاع في الحرب ، التقدم والانسحاب ، النصر والهزيمة ، كلها مظاهر متناقضة. ولا يمكن لأحد منها أن يبقى بدون نقيضه. وهذان الجانبان متصارعان ومتحدان في وقت واحد ، يؤلفان بذلك الوحدة الكلية للحرب ، ويدفعان الحرب إلى التطور ، ويحلان مشكلاتها.

وينبغي النظر إلى كل اختلاف في مفاهيم الإنسان على أنه انعكاس لتناقض موضوعي. إن التناقضات الموضوعية تنعكس في التفكير الذاتي ، فتشكل حركة التناقض في المفاهيم ، وتدفع التفكير نحو التطور ، وتحل دون انقطاع المشاكل التي تقوم في فكر الإنسان.

إن تضاد الأفكار المختلفة والصراع بينها في صفوف الحزب ينشأ على الدوام ، وهو انعكاس داخل الحزب للتناقضات بين الطبقات والتناقضات بين القديم والجديد في المجتمع. ولا شك أن حياة الحزب ستتوقف إذا خلا من التناقضات ومن الصراع الإيديولوجي من أجل حل هذه التناقضات.

وهكذا فقد اتضح أن التناقض يوجد بصورة شاملة سواء في الأشكال البسيطة للحركة أو في الأشكال المعقدة لها ، في الظواهر الموضوعية أو في الظواهر الفكرية ، وأنه يوجد في جميع العمليات. لكن هل التناقض موجود أيضاً في المرحلة البدائية من كل عملية ؟ هل هناك حركة التناقض من البداية حتى النهاية في عملية تطور كل شيء ؟

يبدو من المقالات التي نقدت فيها الأوساط الفلسفية في الاتحاد السوفياتي مدرسة ديبورين أن هذه المدرسة تزعم أن التناقض لا يظهر منذ بداية عملية ما ، وإنما يظهر عندما تكون العملية قد تطورت إلى مرحلة معينة. وبناء على ذلك فإن تطور العملية حتى تلك اللحظة لا ينشأ عن الأسباب الباطنية ، بل عن الأسباب الخارجية. وهكذا يكون ديبورين قد عاد إلى نظرية الأسباب الخارجية ، ونظرية الميكانيكية ، اللتين تنادي بهما الميتافيزيقا. وحين طبق أتباع مدرسة ديبورين هذه النظرية في تحليل

القضايا الواقعية ، رأوا أنه ليس بين الكولاك وبين جمهور الفلاحين في ظروف الاتحاد السوفياتي أية تناقضات ، بل بينهم تفاوت فقط ، فوافقوا بذلك موافقة تامة على رأي بوخارين[10]. ورأوا كذلك ، في تحليل الثورة الفرنسية ، أنه لم يكن قبل الثورة في داخل الطبقة الثالثة المؤلفة من العمال والفلاحين والبرجوازية أية تناقضات ، بل هناك تفاوت فقط. إن وجهات نظر أتباع مدرسة ديبورين هذه مناهضة للماركسية. فهم لا يفهمون أن كل تفاوت في العالم ينطوي في ذاته على تناقض ، وأن التفاوت هو التناقض. ولقد ولد التناقض بين العمال والرأسماليين منذ اللحظة التي ظهرت فيها هاتان الطبقتان إلى الوجود ، إلا أن هذا التناقض لم يكن حاداً. وأن هناك تفاوتاً بين العمال والفلاحين ، حتى في ظروف الاتحاد السوفياتي الاجتماعية ، وهذا التفاوت هو التناقض ، لكنه ، خلافاً للتناقض بين العمال والرأسماليين ، لن يشتد بحيث يصير تناقضاً عدائياً ، ولن يتخذ شكل الصراع الطبقي ؛ فالعمال والفلاحون يشكلون في غمرة البناء الاشتراكي ، تحالفاً متيناً ، وسوف يحلون ذلك التناقض تدريجياً في مجرى التطور من الاشتراكية إلى الشيوعية. إن المسألة هنا هي مسألة الاختلاف في صفة التناقضات ، وليست مسألة وجود التناقضات أو انعدامها. إن التناقض شيء عام مطلق ، موجود في جميع عمليات تطور الأشياء ، ويتخلل جميع العمليات من البداية حتى النهاية.

كيف تبدأ عملية جديدة ما ؟ إنها تبدأ على النحو التالي: عندما تفسح الوحدة القديمة والعنصران المتضادات اللذان تتركب منهما هذه الوحدة الجديدة ، فإن عملية جديدة تنبثق مكان العملية القديمة. فحين تنتهي العملية القديمة تبدأ العملية الجديدة. ولما كانت العملية الجديدة تتضمن هي الأخرى تناقضات جديدة ، فإن تاريخ تطور تناقضاتها الخاصة يبدأ منذ ذلك الحين.

ولقد أشار لينين أن ماركس قد قدم في كتابه "رأس المال" تحليلاً نموذجياً لحركة التناقض التي تجري خلال عملية تطور الأشياء من البداية حتى النهاية. وهذه هي الطريقة التي ينبغي أن تطبق في دراسة عملية تطور كل شيء. ولقد طبقها لينين نفسه أيضاً بصورة صحيحة والتزم بها في جميع كتاباته.

"إن أول ما حلله ماركس ، في كتابه "رأس المال" ، هو أبسط علاقة في المجتمع البرجوازي (السلعي) ، علاقة اعتيادية أساسية مألوفة عادية أكثر من غيرها ، علاقة تحدث مليارات المرات ، ألا وهي تبادل السلع. وفي هذه الظاهرة البسيطة جداً (في هذه "الخلية" للمجتمع البرجوازي) ، كشف التحليل جميع تناقضات (أو بذور جميع تناقضات) المجتمع الحديث. وأن العرض اللاحق يبين لنا تطور (النمو والحركة على حد سواء) هذه التناقضات وهذا المجتمع في المجموع العام لأجزائه المختلفة ، منذ بدايته حتى نهايته."

يستطرد لينين قائلاً: "وهكذا ينبغي أن تكون طريقة العرض (والدراسة) للديالكتيك بصورة عامة."[11]

وينبغي للشيوعيين الصينيين أن يتقنوا هذه الطريقة ، وعندئذ فقط يستطيعون تحليل تاريخ الثورة الصينية وظروفها الراهنة تحليلاً صحيحاً وتحديد آفاقها في الوقت نفسه.

3- خاصية التناقض

يوجد التناقض في عملية تطور جميع الأشياء ، وهو يتخلل عملية تطور كل شيء من البداية حتى النهاية: هذان هما عمومية التناقض وصفته المطلقة ، كما أوضحنا آنفاً. ونتحدث الآن عن خاصية التناقض ونسبيته.

ينبغي أن ندرس هذه القضية من عدة زوايا.

أولاً ، إن للتناقض في كل شكل من أشكال حركة المادة صفته الخاصة. إن معرفة البشر للمادة هي معرفتهم بأشكال حركة المادة ، لأنه ليس في العالم من شيء سوى المادة في حالة حركة ، وحركة المادة لابد أن تتخذ شكلاً من الأشكال المعينة. وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار ، عندما نتفحص كل شكل من أشكال حركة المادة ، السمات التي يشترك فيها هذا الشكل مع الأشكال الأخرى للحركة. لكن ما له أهمية أعظم هو وجوب ملاحظة السمة الخاصة للشكل المعين من أشكال حركة المادة ، وملاحظة هذه السمة الخاصة هي التي تشكل أساس معرفتنا بالأشياء ، أي ملاحظة الاختلاف الجوهري الذي بينه وبين الأشكال الأخرى. وبهذا وحده نستطيع أن نميز بين الأشياء المختلفة. إن كل شكل من أشكال الحركة يحتوي في ذاته على تناقضه الخاص. وهذا التناقض الخاص يشكل الجوهر الخاص الذي يميز الشيء عن الأشياء الأخرى. وهذا هو السبب الباطني أو الأساس كما يسمى أيضاً ، في

الاختلاف العظيم الذي لا يمكن حصره بين الأشياء المتنوعة في العالم. وثمة أشكال عديدة للحركة في الطبيعة : الحركة الميكانيكية ، والصوت ، والضوء ، والحرارة ، والكهرباء ، والتفكك ، والتجمع ، وهلم جرا. وجميع هذه الأشكال يعتمد بعضها على بعض في البقاء ويختلف بعضها عن بعض جوهرياً في آن واحد. وإن الجوهر الخاص الذي يحمله كل شكل من أشكال حركة المادة يتحدد بالتناقض الخاص الذي يتميز به ذلك الشكل. وينطبق هذا لا على الطبيعة وحدها ، بل ينطبق كذلك على ظواهر المجتمع والتفكير. فإن كل شكل من أشكال المجتمع ، وكل أسلوب من أساليب التفكير ، له تناقضه الخاص وجوهره الخاص.

وإن تصنيف الدراسات العلمية المختلفة يقوم بالضبط على أساس التناقضات الخاصة القائمة في كل فرع من فروع العلم. وهكذا فإن نوعاً معيناً من التناقضات خاصاً بحقل معين من الظواهر يشكل موضوع الدراسة لفرع معين من العلوم. مثال ذلك الأعداد الموجبة والأعداد السالبة في الرياضيات ، الفعل ورد الفعل في الميكانيكا ، الكهرباء الموجبة والسالبة في الفيزياء ، التحلل والتركيب في الكيمياء ، القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ، الصراع بين طبقة وأخرى في العلوم الاجتماعية ، الهجوم والدفاع في العلوم العسكرية ، المثالية والمادية ، النظرة الميتافيزيقية والنظرة الديالكتيكية في الفلسفة ، وهلم جرا ، إن جميع هذه الأشياء بسبب احتواء كل زوج منها على تناقض خاص وجوهر خاص فإنها تشكل مواضيع فروع مختلفة من الدراسة العلمية. وطبيعي أننا ، إذا لم نعرف عمومية التناقض ، لا نستطيع أن نكتشف الأسباب العامة أو الأسس العامة لحركة الأشياء وتطورها ؛ ولكننا إذا لم ندرس خاصية التناقض فلن نستطيع أن نحدد الجوهر الخاص الذي يميز شيئاً عن الأشياء الأخرى ، ولن نستطيع أن نكتشف الأسباب الخاصة أو الأسس الخاصة لحركة الأشياء أو تطورها ، ومن ثم لن نستطيع أن نميز بين الأشياء أو نحدد حقول البحث العلمي.

وفيما يتعلق بالتسلسل في حركة المعرفة البشرية فهناك دائماً نمو تدريجي من معرفة أشياء مفردة وخاصة إلى معرفة أشياء عامة. ولا يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى التلخيص وأن يعرف الجوهر المشترك بين أشياء مختلفة عديدة إلا بعد إلمامه بالجوهر الخاص لكل شيء منها. وبعد أن يلم الإنسان بهذا الجوهر المشترك ، فإنه يستعمل معرفته كدليل له ويقدم عندئذ على دراسة أشياء محددة مختلفة لم تدرس بعد أو درست دراسة غير معمقة ، فيستخرج الجوهر الخاص لكل منها ، وبهذه الطريقة وحدها يستطيع أن يكمل معرفته بالجوهر المشترك ويغنيها ويطورها ، ويحول دون أن تصبح هذه المعرفة جافة أو متحجرة. فهناك عمليتان في المعرفة: إحداهما من الخاص إلى العام ، والأخرى من العام إلى الخاص. وتتقدم المعرفة البشرية على الدوام بإعادة هاتين العمليتين بشكل دائري ، ويمكنها مع كل دورة (إذا طبقت الطريقة العلمية بدقة) أن ترتفع لدرجة أعلى وأن تتعمق باستمرار. وأصحاب الجمود العقائدي بيننا يرتكبون أخطاء في هذه المسألة لأنهم ، من جهة ، لا يفهمون أنه يجب علينا أن ندرس خاصية التناقض ونعرف الجوهر الخاص لكل شيء من الأشياء المفردة قبل أن نستطيع أن نعرف بصورة كاملة عمومية التناقض والجوهر المشترك للأشياء المختلفة ؛ ولأنهم ، من جهة ثانية ، لا يفهمون أنه يجب علينا بعد الإلمام بالجوهر المشترك للأشياء أن نتقدم لدراسة تلك الأشياء المحددة التي لم تدرس بعد بصورة معمقة أو التي نشأت للمرة الأولى. إن أصحاب الجمود العقائدي بيننا قوم من الكسالى ، يرفضون القيام بأية دراسة شاقة للأشياء المحددة ، ويعتبرون الحقائق العامة كشيء هبط من السماء فيجعلونها صيغاً مجردة صرفة لا يمكن أن يدركها الناس ، وبذلك ينكرون كل الإنكار ويقبلون في الوقت ذاته الترتيب الطبيعي الذي يتوصل الإنسان بواسطته إلى معرفة الحقيقة. وكذلك لا يفهمون الترابط القائم بين عمليتي المعرفة البشرية — من الخاص إلى العام ثم من العام إلى الخاص ، إنهم لا يفهمون البتة النظرية الماركسية حول المعرفة.

ليس من الضروري وحسب أن ندرس التناقض الخاص لكل نظام كبير من أشكال حركة المادة والجوهر الذي يحدده هذا التناقض ، بل من الضروري كذلك أن ندرس التناقض الخاص والجوهر لكل شكل من أشكال حركة المادة في كل عملية من العمليات في مجرى تطوره الطويل. إن كل عملية حقيقية لا وهمية من عمليات تطور جميع أشكال الحركة ، تختلف جوهرياً عن العمليات الأخرى. وينبغي لنا في دراستنا أن نشدد على هذه النقطة وننطلق منها.

إن التناقضات المختلفة من حيث طبيعتها لا يمكن إن تحل إلا بطرق مختلفة طبيعياً. مثال ذلك أن التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية يحل بطريقة الثورة الاشتراكية ؛ والتناقض بين جماهير الشعب الغفيرة والنظام الإقطاعي يحل بطريقة الثورة الديمقراطية ؛ والتناقض بين المستعمرات والإمبريالية يحل بطريقة الحرب الوطنية الثورية ؛ والتناقض بين الطبقة العاملة

وطبقة الفلاحين في المجتمع الاشتراكي يحل بطريقة جعل الزراعة جماعية ومكننتها ؛ والتناقض داخل الحزب الشيوعي يحل بطريقة النقد والنقد الذاتي ؛ والتناقض بين المجتمع والطبيعة يحل بطريقة تطوير القوى المنتجة. إن العمليات تتبدل ، فتتلاشى العمليات القديمة والتناقضات القديمة ، وتنبثق عمليات جديدة وتناقضات جديدة ، وطبقاً لذلك تختلف طرق حل التناقضات. فثمة فرق أساسي بين التناقض الذي حلته ثورة فبراير (شباط) وبين الذي حلته ثورة أكتوبر (تشرين أول) في روسيا ، وكذلك بين الطرق التي استعملت لحل تلك التناقضات . فاستخدام الطرق المختلفة لحل التناقضات المختلفة هو مبدأ يجب على الماركسيين اللينينيين أن يراعوه مراعاة دقيقة. أما أصحاب الجمود العقائدي فلا يراعون هذا المبدأ إذ أنهم لا يفهمون الفوارق بين الحالات الثورية المختلفة ، وبنتيجة ذلك لا يفهمون أنه ينبغي اللجوء إلى طرق مختلفة في سبيل حل التناقضات المختلفة ، بل يعتنقون بانتظام صيغة واحدة يتخيلون أنها غير قابلة للتبدل ، ويطبقونها بصورة آلية على كل شيء ، الأمر الذي لا يؤدي سوى إلى جلب النكسات على الثورة أو إلى إفساد قضية كانت تسير على ما يرام حتى ذلك الحين.

ولكي نكشف اللثام عن خاصية التناقضات في مجموعها وفي ترابطها معاً داخل عملية تطور الشيء ، أي أن نكشف اللثام عن جوهر عملية تطور الشيء ، ينبغي لنا أن نكشف اللثام عن خاصية طرفي كل تناقض من التناقضات في هذه العملية ، وإلا أصبح من المستحيل الكشف عن جوهر العملية ، وهذه قضية يجب علينا أن نعيرها أيضاً كل الانتباه في دراستنا.

إن كل شيء عظيم يحتوي في عملية تطوره على تناقضات عديدة. مثال ذلك أن هناك في عملية الثورة الديمقراطية البرجوازية في الصين ، التناقض بين الطبقات المضطهدة في المجتمع الصيني وبين الإمبريالية ، والتناقض بين جماهير الشعب الغفيرة والنظام الإقطاعي ، والتناقض بين البروليتاريا والبرجوازية ، والتناقض بين الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن من جهة والبرجوازية من جهة أخرى ، والتناقض بين الكتل الحاكمة الرجعية المختلفة..الخ ، فالحالة إذن معقدة جداً. ولكل من هذه التناقضات خاصيته بحيث لا يمكن وضعها جميعاً على صعيد واحد ، وليس هذا فحسب ، بل إن لكل طرف من طرفي كل تناقض خصائصه بحيث لا يمكن أيضاً أن يعاملا معاملة واحدة. فلا ينبغي لنا ، نحن الذين نعمل من أجل الثورة الصينية ، أن نكتفي بفهم خاصية كل من التناقضات بالنظر إلى هذه التناقضات في مجموعها ، أي إلى ترابطها ، بل ينبغي لنا أيضاً أن ندرس طرفي كل تناقض منها ، وبهذا وحده نجد سبيلاً إلى فهم مجموع هذه التناقضات. ونقصد بدراسة طرفي كل تناقض فهم المركز الخاص الذي يحتله كل طرف ، والشكل المحدد الذي به يعتمد كل طرف على الآخر في البقاء ويتناقض معه في آن واحد ، والوسائل المحددة التي يناضل بها ضد نقيضه عندما يكون كل منهما معتمداً على الآخر في البقاء ويكون متناقضاً معه في الوقت ذاته أو عندما ينفصم هذا الاعتماد المتبادل. إن دراسة هذه المسائل أمر على غاية الأهمية. وقد عبر لينين عن هذه الفكرة بالضبط حين قال أن التحليل المحدد للظروف المحددة هو الشيء الجوهري الأول في الماركسية ، وهو روحها الحية[12]. لكن أصحاب الجمود العقائدي بيننا ، خلافاً لتعاليم لينين ، لا يستعملون أدمغتهم البتة في سبيل تحليل أي شيء بصورة محددة ، بل يستخدمون دائماً أسلوب القوالب الجامدة في كتاباتهم وخطاباتهم ، ويخرجونها عقيمة جوفاء خالية من كل مضمون ، وهم بذلك خلقوا في حزبنا أسلوباً سيئاً جداً في العمل.

عندما ندرس قضية ما ، ينبغي لنا أن نبعد أنفسنا عن النظرة الذاتية ، والنظرة الوحيدة الجانب ، والنظرة السطحية. فالنظرة الذاتية معناها العجز عن دراسة القضايا دراسة موضوعية ، أي العجز عن دراستها وفق وجهة النظر المادية. وقد أوضحت هذا في بحثي "في الممارسة العملية". أما النظرة الوحيدة الجانب فمعناها العجز عن دراسة القضايا من جميع جوانبها. ومن أمثلة ذلك ، فهم الصين وحدها من دون اليابان ، وفهم الحزب الشيوعي وحده من دون الكومينتانغ ، وفهم البروليتاريا وحدها من دون البرجوازية ، وفهم الفلاحين وحدهم من دون ملاك الأراضي ، وفهم الظروف الملائمة وحدها من دون الظروف العسيرة ، وفهم الماضي وحده من دون المستقبل ، وفهم الجزء وحده من دون الكل ، وفهم النقائص وحدها من دون المنجزات ، وفهم المدعي وحده من دون المدعى عليه ، وفهم العمل الثوري السري وحده من دون العمل الثوري العلني ، وهلم جرا. وباختصار ، عدم فهم خاصية كل طرف من طرفي تناقض ما. وهذا ما يدعى النظر إلى القضايا نظرة وحيدة الجانب. أو يدعي رؤية الجزء دون الكل ، كرؤية الشجرة دون الغابة. فإذا فعلنا ذلك فلن نستطيع الاهتداء إلى طرق حل التناقضات ، ولا إنجاز مهمات الثورة ، ولا أداء الواجبات بصورة مرضية ، ولا تطوير الصراع الإيديولوجي في داخل الحزب بصورة صحيحة. لقد قال سون تسي حول العلوم العسكرية: "إذا

كنت على بينة من أمر عدوك وأمر نفسك فلن تنهزم في أي معركة تخوضها."[13] وهو يقصد بهذا القول معرفة أحوال كلا الطرفين المتقاتلين. وقال وي تشنغ[14] من أسرة تانغ: "إذا استمعت إلى الطرفين ظهرت لك الحقيقة ، أما إذا استمعت إلى طرف واحد تحيزت له خفيت عليك الحقيقة." وكان وي تشنغ أيضاً يدرك خطأ النظرة الوحيدة الجانب. ولكن رفاقنا كثيراً ما ينظرون إلى القضايا من جانب واحد ، ولذلك كثيراً ما يتعثرون. وقد جاء في رواية "أبطال على شاطئ البحيرة" أن سونغ جيانغ هاجم قرية تشو ثلاث مرات[15] ، فانهزم في المرتين الأوليين نظراً لأنه كان يجهل حال العدو فطبق طريقة خاطئة. ثم غير طريقته ، فبدأ باستكشاف الأوضاع ، فعرف سر الطرق المتشابكة التي يتيه فيها الغرباء ، ونجح في فصم عرى التحالف بين القرى الثلاث: قرية لي وقرية هو وقرية تشو ، ووضع كميناً في معسكر العدو ، وهي حيلة مماثلة لحيلة حصان طروادة[16] في القصص الأجنبية ، وكسب النصر في المعركة الثالثة. ونجد في رواية "أبطال على شاطئ البحيرة" أمثلة عديدة من الديالكتيك المادي تعتبر قصة الهجمات الثلاث على قرية تشو أحسنها. لقد قال لينين: "لكي نعرف موضوعاً ما معرفة حقيقية ، علينا أن نلم وندرس جميع جوانبه وروابطه و"وسائطه". وبالرغم من أننا لن نتمكن من تحقيق ذلك بصورة تامة ، إلا أن حرصنا على دراسة القضايا من جميع جوانبها سيقينا شر الأخطاء والجمود."[17] إن من واجبنا أن نتذكر هذه الكلمات. أما النظرة السطحية فهي تعني أن المرء لا يأخذ بعين الاعتبار خاصية تناقض ما في مجموعه ولا خاصية كل طرف من طرفي التناقض ، وتعني أن المرء ينكر ضرورة التعمق في شيء ودراسة خاصية التناقض القائم فيه بدقة ، بل يكتفي بالنظر إليه من بعيد ويحاول ، بعد أن يلمح التناقض لمحة خاطفة ، أن يحل هذا التناقض (أن يرد على الأسئلة ، ويحسم الخلافات ، ويتصرف في الأعمال ، ويوجه العمليات الحربية). ومثل هذا الأسلوب لا بد أن يثير المتاعب. وأن السبب في أن رفاقنا المصابين بالجمود العقائدي والتجريبية يرتكبون الأخطاء يعود إلى أنهم ينظرون إلى الأشياء بطريقة ذاتية ووحيدة الجانب وسطحية. والنظرة الوحيدة الجانب ، والنظرة السطحية هما في نفس الوقت نظرة ذاتية ، ذلك لأن جميع الأشياء الموضوعية هي في الحقيقة مرتبطة بعضها ببعض ، ولها قوانينها الباطنية ، إلا أن بعض الناس ، بدلاً من أن يعكسوا الأشياء كما هي ، ينظرون إليها نظرة وحيدة الجانب أو نظرة سطحية ، دون أن يدركوا علاقاتها المتبادلة ولا قوانينها الباطنية ، ولهذا فإن أسلوبهم أسلوب ذاتي.

إن كل عملية حركة التناقضات في تطور شيء ما لها خصائصها التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار ، سواء من حيث ترابط التناقضات أو من حيث حال كل طرف من أطرافها ، وليس هذا فقط ، بل إن لكل مرحلة من مراحل عملية تطور الشيء أيضاً خصائصها التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار.

فإن التناقض الأساسي في عملية تطور شيء ما ، وجوهر العملية التي يحدده هذا التناقض الأساسي ، لن يتلاشيا قبل اكتمال العملية ؛ لكن الوضع في كل مرحلة من مراحل عملية التطور الطويلة للشيء كثيراً ما يختلف عن وضع مرحلة أخرى. والسبب في ذلك أنه على الرغم من أن طبيعة التناقض الأساسي في عملية تطور شيء ما وجوهر العملية لا يتغيران ، إلا أن التناقض الأساسي يتزايد حدة في المراحل المختلفة من عملية التطور الطويلة. وفضلاً عن ذلك فإن بعضاً من التناقضات العديدة ، الكبيرة منها والصغيرة ، التي يحددها التناقض الأساسي أو يؤثر فيها يصبح متزايد الحدة ، والبعض الآخر يحل مؤقتاً أو جزئياً أو تخف حدته ، وإن تناقضات جديدة تنبثق ، وبنتيجة ذلك تظهر في العملية مراحل مختلفة. فإذا لم يعر الناس انتباهاً لوجود مراحل مختلفة في عملية تطور شيء ما فإنهم لن يستطيعوا معالجة تناقضاته كما يجب.

مثال ذلك: عندما تطورت رأسمالية عصر المنافسة الحرة وتحولت إلى إمبريالية ، لم يحدث أن تبدل في طبيعة الطبقتين المتناقضتين تماماً ، البروليتاريا والبرجوازية ، ولا في الطبيعة الرأسمالية لهذا المجتمع ؛ ولكن التناقض بين هاتين الطبقتين قد ازداد حدة ، وانبثق التناقض بين الرأسمال الاحتكاري والرأسمال الحر ، واشتد التناقض بين البلدان الاستعمارية والمستعمرات ، كما أن التناقض بين مختلف البلدان الرأسمالية ، الناشئ عن تطورها المتفاوت ، برز على نحو حاد جداً ، وهكذا ظهرت مرحلة خاصة من الرأسمالية هي مرحلة الإمبريالية. والسبب في أن اللينينية هي ماركسية عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية هو أن لينين وستالين قد قدما إيضاحاً صحيحاً لهذه التناقضات وصاغا بصورة صحيحة نظرية الثورة البروليتارية وتكتيكها في سبيل حل تلك التناقضات.

وإذا نظرنا إلى عملية الثورة الديمقراطية البرجوازية في الصين ، التي بدأت بثورة 1911 ، وجدنا لها أيضاً مراحل خاصة متعددة. فالثورة في فترة قيادة البرجوازية لها والثورة في فترة قيادة البروليتاريا لها تتمايزان على الأخص ، كمرحلتين تاريخيتين مختلفتين اختلافاً كبيراً. ذلك أن القيادة التي مارستها البروليتاريا غيرت وجه الثورة بصورة جذرية ، وأدت إلى ترتيب جديد في العلاقات الطبقية ، وإلى انطلاق عظيم في ثورة الفلاحين ، ومنحت الثورة الموجهة ضد الإمبريالية والإقطاعية صفة الحزم الذي لا يعرف المهادنة ، وجعلت من الممكن الانتقال من الثورة الديمقراطية إلى الثورة الاشتراكية ، وهلم جرا. وما كان يمكن أن تحدث هذه الأشياء كلها عندما كانت الثورة بقيادة البرجوازية. وعلى الرغم من أنه لم يحدث تبدل في طبيعة التناقض الأساسي في العملية كلها ، أي في طبيعة هذه العملية بوصفها ثورة ديمقراطية مناهضة للامبريالية والإقطاعية (ونقيضها هو طبيعة البلاد كشبه مستعمرة وبلد شبه إقطاعي) ؛ فإن العملية قد اجتازت مع ذلك مراحل عديدة من التطور في مدة تزيد على عشرين عاماً وقعت خلالها أحداث كبيرة عديدة كإخفاق ثورة 1911 ، وقيام حكم أمراء الحرب الشماليين ، وإنشاء الجبهة الوطنية المتحدة الأولى ، وثورة 1924-1927 ، وانفصام عرى الجبهة المتحدة وانتقال البرجوازية إلى المعسكر المناهض للثورة ، والحروب بين أمراء الحرب الجدد ، وحرب الثورة الزراعية ، وإنشاء الجبهة الوطنية المتحدة الثانية وحرب المقاومة ضد اليابان. وكانت هذه المراحل تحتوي على أوضاع خاصة ، مثل اشتداد بعض التناقضات (حرب الثورة الزراعية والغزو الياباني للمقاطعات الشمالية الشرقية الأربع مثلاً)[18] ، والحل الجزئي أو المؤقت لتناقضات أخرى (تصفية أمراء الحرب الشماليين ومصادرتنا للأراضي التي في يد ملاك الأراضي مثلاً) ، والانبثاق الجديد لتناقضات أخرى (الصراع بين أمراء الحرب الجدد ، واستعادة الأراضي لأراضيهم بعد أن فقدنا القواعد الثورية في الجنوب مثلاً).

حين ندرس خصائص التناقضات في كل مرحلة من مراحل عملية تطور شيء ما ، فإنه ينبغي لنا ألا ندرسها في ترابط التناقضات وفي مجموعها فحسب ، بل ينبغي لنا أيضاً أن ندرسها في كل طرف من أطراف التناقضات في كل مرحلة من مراحل التطور.

فلنأخذ الكومينتانغ والحزب الشيوعي مثلاً. لقد نفذ الكومينتانغ في فترة الجبهة المتحدة الأولى ، السياسات الكبرى الثلاث لصون يات صن : التحالف مع روسيا ، والتعاون مع الحزب الشيوعي ، وتقديم المساعدة إلى العمال والفلاحين ، فكان بذلك ثورياً ذا حيوية ، وجسد تحالف طبقات مختلفة في الثورة الديمقراطية. لكن الكومينتانغ تحول إلى نقيضه منذ عام 1927 فأصبح كتلة رجعية تمثل كبار ملاك الأراضي والبرجوازية الكبيرة. ثم بدل اتجاهه مرة أخرى ، بعد حادثة شيآن في ديسمبر (كانون الأول) 1936[19] ، وانعطف نحو وقف الحرب الأهلية والتحالف مع الحزب الشيوعي لمجابهة الإمبريالية اليابانية في صف واحد. هذه هي خصائص الكومينتانغ في المراحل الثلاث. ومعلوم أن نشوء هذه الخصائص راجع إلى أسباب شتى. أما الحزب الشيوعي الصيني ، فقد كان في فترة الجبهة المتحدة الأولى حزباً في طور الطفولة ، وقد قاد بشجاعة ثورة 1924-1927 ؛ لكنه كشف عن عدم نضجه في فهم طبيعة الثورة ومهماتها وأساليبها ، وبنتيجة ذلك استطاعت التشندوشيوية التي ظهرت في الفترة الأخيرة من هذه الثورة ، أن تفعل فعلها وأن تؤدي بالثورة إلى الهزيمة. ولقد عاد الحزب الشيوعي ، منذ عام 1927 ، فقاد بشجاعة حرب الثورة الزراعية وخلق الجيش الثوري والقواعد الثورية ، لكنه ارتكب أخطاء المغامرة التي سببت خسائر جسيمة للجيش وللقواعد على حد سواء. وقد أصلح هذه الأخطاء منذ عام 1935 ، وقاد الجبهة المتحدة الجديدة لمقاومة اليابان ، هذا النضال العظيم الذي يتطور الآن وينمو. وفي هذه المرحلة أصبح الحزب الشيوعي حزباً مر باختبار ثورتين واكتسب ثورة عظيمة من التجارب. هذه هي خصائص الحزب الشيوعي الصيني في المراحل الثلاث. ونشوء هذه الخصائص راجع كذلك إلى أسباب شتى. ولن نستطيع ، دون دراسة هذه الخصائص ، أن نفهم العلاقات المتبادلة الخاصة بين الحزبين في مراحل التطور المختلفة: إنشاء جبهة متحدة ، وانفصام عرى الجبهة ، وإنشاء جبهة متحدة أخرى. لكنه ينبغي لنا ، كي ندرس الخصائص المختلفة للحزبين ، أن ندرس — وهذا أمر أكثر أهمية — الأسس الطبقية للحزبين ، والتناقضات الناتجة عنها بين كل من الحزبين وبين القوى الأخرى خلال كل مرحلة من المراحل. مثال ذلك أن الكومينتانغ في فترة تحالفه الأول مع الحزب الشيوعي كان ، من جهة ، في تناقض مع الإمبريالية الأجنبية ، ولهذا كان يعارض الإمبريالية ؛ وكان ، من جهة أخرى ، في تناقض مع جماهير الشعب الغفيرة في داخل البلاد ، فكان ، رغم وعوده اللفظية بإعطاء فوائد كثيرة للشعب الكادح ، لم يعطه في الحقيقة إلا القليل جداً أو لم يعطه شيئاً البتة. وفي الفترة التي قام فيها بالحرب المناهضة للشيوعيين ، كان يتعاون مع الإمبريالية والإقطاعية ضد جماهير الشعب الغفيرة ، فمحى بجرة قلم جميع المكاسب التي نالتها جماهير الشعب الغفيرة

في الثورة ، وبذلك زاد من حدة التناقض بينه وبينها. أما في الفترة الراهنة فترة حرب المقاومة ضد اليابان فإن الكومينتانغ ، بسبب التناقض القائم بينه وبين الإمبريالية اليابانية ، يريد أن يتحالف مع الحزب الشيوعي ، إلا أنه في الوقت ذاته لا يتراخى في نضاله ضد الحزب الشيوعي والشعب الصيني واضطهاده إياهما. أما الحزب الشيوعي فإن يقف على الدوام ، في أي فترة كانت ، إلى جانب جماهير الشعب الغفيرة في النضال ضد الإمبريالية والإقطاعية ؛ ولكن لما كان الكومينتانغ ، في الفترة الراهنة فترة حرب المقاومة ضد اليابان ، قد أبدى استعداده لمقاومة اليابان ، فقد اتخذ الحزب الشيوعي سياسة معتدلة تجاهه وتجاه القوى الإقطاعية في داخل البلاد. ولقد أدت هذه الظروف إلى تحالف بين الحزبين في زمن ما ، وإلى صراعهما في زمن آخر ، بل لقد كان هناك حتى في فترة التحالف ، حالة معقدة كان الصراع بينهما يجري فيها إلى جانب تحالفهما. فإذا لم ندرس خصائص طرف التناقض هذه ، فإننا سوف نخفق في فهم العلاقات بين كل من هذين الحزبين وبين القوى الأخرى ، بل سوف نخفق في فهم العلاقات المتبادلة بين الحزبين أيضاً.

يتبين من هنا أنه ينبغي لنا في دراسة خصائص أي تناقض – التناقض في كل شكل من أشكال حركة المادة ، والتناقض في كل شكل للحركة في كل عملية من عمليات التطور المختلفة ، وطرفي كل تناقض في كل عملية من عمليات التطور ، والتناقضات في كل مرحلة من مراحل العملية وطرفي كل تناقض منها في كل مرحلة – ينبغي لنا في دراسة خصائص كل هذه التناقضات أن نتفادى النظرة الذاتية والنظرة الاعتباطية وأن نقوم بتحليلها تحليلاً محدداً. ولا يمكن أن يكون ثمة معرفة بخصائص أي تناقض بدون التحليل المحدد. إن من واجبنا أن نذكر دائماً كلمات لينين: التحليل المحدد للظروف المحددة.

ولقد كان ماركس وانجلز سباقين إلى تزويدنا بنموذج رائع عن هذا التحليل المحدد.

عندما طبق ماركس وانجلز قانون التناقض في الأشياء على دراسة عملية التاريخ الاجتماعي ، فقد اكتشفا التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ، والتناقض بين الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة ، كما اكتشفا التناقض الناتج عن ذلك بين القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي من سياسة وأيديولوجية..الخ ، واكتشفا كيف أن هذه التناقضات تؤدي لا محالة ، في المجتمعات الطبقية المختلفة ، إلى ثورات اجتماعية مختلفة.

وعندما طبق ماركس هذا القانون على دراسة البنية الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي اكتشف أن التناقض الأساسي لهذا المجتمع يكمن في التناقض بين الصفة الاجتماعية للإنتاج والصفة الخاصة للملكية. ويتمثل ذلك في التناقض بين الصفة المنظمة للإنتاج في كل مشروع على حدة والصفة غير المنظمة للإنتاج في المجتمع بأسره. ويعبر هذا التناقض عن نفسه ، من حيث العلاقات الطبقية ، في التناقض بين البرجوازية والبروليتاريا.

وبسبب أن أنواع الأشياء لا متناهية وأن تطورها غير محدود ، فإن ما هو عمومي في حالة معينة يصير خاصاً في حالة معينة أخرى. وعلى عكس ذلك فإن ما هو خاص في حالة معينة يصير عمومياً في حالة معينة ثانية. إن التناقض الذي يحتوي عليه النظام الرأسمالي بين الصفة الاجتماعية للإنتاج والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هو شيء مشترك بين جميع البلدان التي توجد وتتطور فيها الرأسمالية ، وهذا ما يشكل ، بالنسبة إلى الرأسمالية ، عمومية التناقض. ولكن هذا التناقض في الرأسمالية شيء خاص بمرحلة تاريخية معينة من تطور المجتمع الطبقي عموماً ، فهو بالنسبة إلى التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج في المجتمع الطبقي عموماً ، فهو بالنسبة إلى التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج في المجتمع الطبقي عموماً ، يشكل خاصية التناقض. لكن حين كشف ماركس اللثام عن خاصية كل تناقض في المجتمع الرأسمالي فقد أوضح ، بصورة أعمق وأوفى وأكمل ، عمومية التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج في المجتمع الطبقي عموماً.

ولما كان الخاص يرتبط بالعام ، ولما كان كل شيء يحتوي لا على خاصية التناقض وحدها ، بل يحتوي أيضاً على عمومية التناقض ، ولما كانت العمومية تكمن في الخاصية ، فإنه ينبغي لنا عندما ندرس شيئاً ما أن نحاول اكتشاف هذين الجانبين وترابطهما ، اكتشاف كل من الخاصية والعمومية في هذا الشيء وترابطهما على حد سواء ، واكتشاف الترابط بين هذا الشيء وغيره من الأشياء العديدة. وعندما أوضح ستالين الجذور التاريخية للينينية في مؤلفه الشهير "أسس اللينينية" ، حلل الوضع المالي الذي ولدت فيه اللينينية وحلل في الوقت ذاته التناقضات المختلفة في الرأسمالية التي بلغت أوجها في ظروف الإمبريالية ، وبين كيف

أن هذه التناقضات جعلت الثورة البروليتارية مسألة عمل فوري ، وكيف خلقت ظروفاً ملائمة لتوجيه الضربات مباشرة نحو الرأسمالية. وبالإضافة لذلك ، قد حلل الأسباب التي جعلت روسيا مهداً للينينية مبيناً كيف كانت روسيا القيصرية تمثل نقطة تجمع كل تناقضات الإمبريالية ، ولماذا استطاعت البروليتاريا الروسية أن تصبح طليعة البروليتاريا العالمية الثورية. وهكذا حلل ستالين عمومية التناقض في الإمبريالية مبيناً كيف أن اللينينية هي ماركسية عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية ؛ وحلل كذلك خاصية امبريالية روسيا القيصرية في هذا التناقض العام ، مبيناً كيف أصبحت روسيا وطناً لنظرية وتكتيك الثورة البروليتارية ، وكيف أنه تكمن في هذه الخاصية عمومية التناقض. ولقد أفادنا تحليل ستالين هذا كنموذج في فهم خاصية التناقض وعموميته وترابطهما.

إن ماركس وانجلز ، وكذلك لينين وستالين ، فيما يتعلق بتطبيق الديالكتيك على دراسة الظواهر الموضوعية ، يعلمون الناس دائماً أنه ينبغي لهم أن يتخلصوا من أية شائبة من شوائب النظرة الذاتية والنظرة الاعتباطية ، بل يجب عليهم أن يكتشفوا ، من الظروف المحددة في الحركة الواقعية الموضوعية ، التناقضات المحددة في تلك الظواهر ، والمركز المحدد لكل طرف من أطراف التناقضات ، والعلاقات المحددة القائمة بين التناقضات. أما أصحاب الجمود العقائدي بيننا فلا يمكنهم أن يصيبوا كبد الحقيقة ، لأنهم لم يتخذوا في البحث هذه الطريقة. فينبغي أن نتعظ بإخفاقهم ، فنتعلم هذه الطريقة الصحيحة في البحث والتي لا توجد طريقة صحيحة أخرى سواها.

إن العلاقة بين عمومية التناقض وخاصيته هي العلاقة بين الصفة المشتركة والصفة الفردية للتناقض. وأننا نعني بالصفة المشتركة أن التناقض يوجد في جميع العمليات يسري فيها من البداية حتى النهاية ، فالحركة ، والأشياء والعمليات ، والتفكير — كلها تناقضات. وإن نكران التناقض في الأشياء هو نكران كل شيء. هذا مبدأ عمومي ينطبق على جميع الأزمان وجميع الأماكن بدون استثناء. ومن هنا جاءت الصفة المشتركة أي الصفة المطلقة للتناقض.

لكن هذه الصفة المشتركة كائنة في كل صفة فردية ، وبدون صفة فردية لا توجد صفة مشتركة. فإذا أبعدنا جميع الصفات الفردية فهل تبقى هناك أي صفة مشتركة ؟ والصفات الفردية للتناقضات ناتجة عن كون كل تناقض ذا صفة خاصة تختلف عن صفات غيره من التناقضات. وأن جميع الصفات الفردية موجودة بصورة مشروطة ومؤقتة ، فهي لذلك نسبية.

هذا المبدأ مبدأ الصفة المشتركة والصفة الفردية ، والمطلق والنسبي ، هو جوهر قضية التناقض في الأشياء ، وأن عدم فهمه معناه نبذ الديالكتيك.

4- التناقض الرئيسي والطرف الرئيسي للتناقض

بقي من قضية خاصية التناقض جانبان آخران ينبغي أن يفردا للتحليل هنا: التناقض الرئيسي والطرف الرئيسي للتناقض.

توجد في كل عملية تطور معقدة لشيء ما تناقضات عديدة ، ولا بد أن يكون أحدها هو التناقض الرئيسي الذي يقرر وجوده وتطوره وجود وتطور التناقضات الأخرى أو يؤثر في وجودها وتطورها.

ففي المجتمع الرأسمالي مثلاً ، تشكل القوتان المتناقضتان ، البروليتاريا والبرجوازية ، التناقض الرئيسي ؛ أما التناقضات الأخرى — كالتناقض بين الطبقة الإقطاعية المتبقية والبرجوازية ، والتناقض بين برجوازية الفلاحين الصغيرة والبرجوازية ، والتناقض بين البروليتاريا وبرجوازية الفلاحين الصغيرة ، والتناقض بين البرجوازية غير الاحتكارية والبرجوازية الاحتكارية ، والتناقض بين الديمقراطية البرجوازية والفاشية البرجوازية ، والتناقض بين البلدان الرأسمالية نفسها ، والتناقض بين الإمبريالية والمستعمرات ..الخ — فيقررها جميعاً ذلك التناقض الرئيسي أو يؤثر فيها.

وفي البلدان شبه المستعمرة كالصين ، تظهر العلاقة بين التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية في حالة معقدة.

فعندما تشن الإمبريالية حرباً عدوانية على بلد من هذا النوع ، فإن الطبقات المختلفة في هذا البلد ، باستثناء حفنة من الخونة ، يمكن أن تتحد مؤقتاً كي تخوض غمار حرب وطنية ضد الإمبريالية. وحينئذ يصبح التناقض بين الإمبريالية وذلك البلد التناقض الرئيسي ، بينما تصبح مؤقتاً جميع التناقضات بين مختلف الطبقات داخل ذلك البلد (بما فيها التناقض الرئيسي بين

النظام الإقطاعي وجماهير الشعب الغفيرة) في مركز ثانوي وتابع. هكذا كانت الحال في الصين أثناء حرب الأفيون عام 1840[20]، والحرب الصينية اليابانية عام 1894[21]، وحرب يى خه توان عام 1900، وكذلك هي الحال في الحرب الصينية اليابانية الراهنة.

لكن مراكز التناقضات تتبدل في حالة أخرى. فعندما تمارس الإمبريالية أشكالاً من الاضطهاد معتدلة نسبياً، سياسية واقتصادية وثقافية..الخ، بدلاً من الاضطهاد عن طريق الحرب، فإن الطبقات الحاكمة في البلدان شبه المستعمرة سوف تستسلم للامبريالية، ويتحالف الاثنان ويتعاونان على اضطهاد جماهير الشعب الغفيرة. وفي مثل هذه الحال كثيراً ما تلجأ جماهير الشعب الغفيرة إلى شكل الحرب الأهلية للوقوف في وجه تحالف الإمبريالية والطبقة الإقطاعية، بينما تتخذ الإمبريالية على الأغلب طرقاً غير مباشرة لمساعدة الرجعيين في البلدان شبه المستعمرة على اضطهاد الشعب دون أن تقوم بعمل مباشر، وعندئذ تبرز حدة التناقضات الداخلية بصورة خاصة. وهكذا كانت الحال في الصين في الحرب الثورية عام 1911، وفي الحرب الثورية 1924-1927، وفي أعوام حرب الثورة الزراعية العشرة منذ عام 1927. ويمكن أن نجد حالة مماثلة أيضاً في الحروب بين مختلف الكتل الحاكمة الرجعية في البلدان شبه المستعمرة – كالحروب بين أمراء الحرب في الصين.

وحين تبلغ الحرب الثورية الأهلية، في تطورها، حداً تهدد معه في الأساس بقاء الإمبريالية وأذنابها الرجعيين المحليين فإن الإمبريالية كثيراً ما تتخذ طرقاً غير الطرق المذكورة أعلاه محاولة الحفاظ على حكمها؛ فهي إما أن تحاول شق الجبهة الثورية من الداخل وإما أن ترسل القوات المسلحة مباشرة لتساعد الرجعيين المحليين. وفي هذه الحال تقف الإمبريالية الأجنبية والرجعيون المحليون بصورة علنية مفضوحة في قطب، بينما تقف جماهير الشعب الغفيرة في القطب الآخر، فيتألف من ذلك تناقض رئيسي يقرر تطور التناقضات الأخرى أو يؤثر فيه. فالمساعدة التي قدمتها البلدان الرأسمالية للرجعيين الروس بعد ثورة أكتوبر (تشرين الأول) هي مثال للتدخل المسلح. وخيانة تشيانغ كاي شيك للثورة عام 1927 هي مثال لشق الجبهة الثورية.

ولكن مهما تكن الحال، فمما لا يتطرق إليه أدنى شك أن ثمة تناقضاً رئيسياً واحداً فقط يلعب الدور القيادي في كل مرحلة من مراحل عملية التطور.

ونعلم مما تقدم أنه إذا كانت في أية عملية من العمليات تناقضات كثيرة فلا بد أن يكون بينها تناقض رئيسي يلعب الدور القيادي الحاسم، أما بقية التناقضات فإنها تحتل مركزاً ثانوياً تابعاً. ولذلك ينبغي لنا في دراسة أي عملية معقدة يوجد فيها تناقضان أو أكثر أن نبذل قصارى جهودنا كي نكتشف التناقض الرئيسي فيها. فإذا أمسكنا بزمام هذا التناقض الرئيسي، استطعنا حل سائر التناقضات بسرعة. وهذه هي الطريقة التي علمنا ماركس إياها عندما درس المجتمع الرأسمالي. وقد علمنا لينين وستالين أيضاً هذه الطريقة عندما درسا الاقتصاد السوفياتي. وأن آلاف الباحثين والمشتغلين بالقضايا العملية لا يفهمون هذه الطريقة، وهم بنتيجة ذلك متحيرون كالملاحين التائهين في بحر عظيم، لا يستطيعون الاهتداء إلى لب الموضوعات، ولذلك يعجزون عن الاهتداء إلى طرق حل التناقضات.

أنه، كما ذكرنا آنفاً، لا يجوز لنا أن نعامل جميع التناقضات الموجودة في عملية ما على قدم المساواة، بل لابد لنا أن نميز بين التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية ونولي انتباهاً خاصاً للامساك بزمام التناقض الرئيسي. لكن هل يجوز لنا أن نعامل الطرفين المتناقضين، في أي تناقض رئيسياً كان أم ثانوياً، على قدم المساواة؟ كلا، لا يجوز ذلك. فإن تطور كل طرف من الطرفين المتناقضين، في أي تناقض كان، متفاوت عن تطور الطرف الآخر. ويتراءى أحياناً أن ثمة توازناً في القوى بين طرفي الحالة الأساسية. فلابد أن يكون أحد الطرفين المتناقضين رئيسياً والآخر ثانوياً. فالطرف الرئيسي هو الذي يلعب الدور القيادي في التناقض. وأن طبيعة الشيء يقررها في الدرجة الأولى الطرف الرئيسي للتناقض، الذي يحتل مركز السيطرة.

لكن هذا الوضع ليس ثابتاً، إذ أن الطرف الرئيسي وغير الرئيسي لتناقض ما يتحول أحدهما إلى الآخر، فتتبدل طبيعة الشيء تبعاً لذلك. إننا نجد، في عملية معينة لتطور تناقض ما، أو في مرحلة معينة من مراحل التطور، أن الطرف الرئيسي هو "أ" وأن الطرف غير الرئيسي هو "ب"؛ ولكن في مرحلة أخرى من التطور أو في عملية أخرى منه تنعكس الحالة، وهذا تبدل يقرره مدى ازدياد أو نقصان قوة كل من الطرفين المتناقضين في صراعه مع الطرف الآخر في مجرى تطور الشيء.

وكثيراً ما نتحدث عن "حلول الجديد محل القديم". إن حلول الجديد محل القديم هو قانون عام للكون لا يمكن مقاومته أبداً. إن تحول شيء إلى شيء آخر تبعاً لطبيعته وللظروف المحيطة به وبواسطة أشكال مختلفة من القفزات، تلك هي عملية حلول

الجديد محل القديم. إن كل شيء يحوى تناقضاً بين طرفه الجديد وطرفه القديم ، تناقضاً يشكل سلسلة من الصراعات الملتوية. ونتيجة لهذه الصراعات يتعاظم الطرف الجديد ويرتفع فيحتل مركز السيطرة ، بينما الطرف القديم يتضاءل بصورة تدريجية حتى يضمحل. وحالما يسيطر الطرف الجديد على الطرف القديم ، فإن الشيء القديم يتحول إلى شيء جديد من حيث الطبيعة. ومن هذا نرى أن طبيعة الشيء يقررها بالدرجة الأولى الطرف الرئيسي للتناقض ، الذي يحتل مركز السيطرة. وعندما يطرأ تبدل على الطرف الرئيسي للتناقض ، الذي يحتل مركز السيطرة فإن طبيعة الشيء تتبدل تبعاً لذلك.

ففي المجتمع الرأسمالي ، تحولت الرأسمالية من قوة تشغل مركزاً تابعاً في عصر المجتمع الإقطاعي القديم إلى قوة تحتل مركز السيطرة ، فتبدلت طبيعة المجتمع تبعاً لذلك من الإقطاعية إلى الرأسمالية. وفي عصر المجتمع الرأسمالي الجديد ، تحولت القوى الإقطاعية ، من قوى كانت في الأصل مسيطرة ، إلى قوى تابعة ، ومن ثم سارت نحو الاضمحلال بصورة تدريجية ، كما حدث في بريطانيا وفرنسا. ومع تطور القوى المنتجة تتحول البرجوازية من طبقة جديدة تلعب دوراً تقدمياً إلى طبقة قديمة تلعب دوراً رجعياً ، حتى تسقطها البروليتاريا في النهاية ، فتصبح طبقة مجردة من الوسائل الخاصة للإنتاج ومن السلطة ، وتضمحل بصورة تدريجية. أما البروليتاريا التي تفوق البرجوازية كثيراً في عددها ، والتي نمت مع البرجوازية في وقت واحد ، لكنها تقع تحت سيطرتها ، فهي قوة جديدة ، تنمو وتزداد قوة بصورة تدريجية ، بعد أن كانت تشغل في البدء مركز التابع للبرجوازية ، فتصير طبقة مستقلة تلعب دوراً قيادياً في التاريخ ، حتى تستولي في النهاية على السلطة السياسية فتصبح الطبقة الحاكمة. وعندئذ تتبدل طبيعة المجتمع فيتحول من المجتمع الرأسمالي القديم إلى المجتمع الاشتراكي الجديد. وهذا هو الطريق الذي اجتازه الاتحاد السوفياتي ، والذي ستجتازه سائر البلدان حتماً.

خذ الوضع في الصين مثلاً. إن الإمبريالية تحتل المركز الرئيسي في التناقض القائم في تحويل الصين إلى شبه مستعمرة ، وهي تضطهد الشعب الصيني ، بينما الصين تتحول من بلد مستقل إلى شبه مستعمرة. لكن هذا الوضع سوف يتبدل بصورة محتومة. ففي الصراع بين الطرفين ، سوف تحول حتماً قوة الشعب الصيني النامية تحت قيادة البروليتاريا بلاد الصين من شبه مستعمرة إلى دولة مستقلة ، بينما الإمبريالية سيطاح بها ، والصين القديمة ستتحول ، لا محالة ، إلى صين جديدة.

إن تبدل الصين القديمة وتحولها إلى صين جديدة يتضمن أيضاً تبدلاً في الوضعية بين القوى الإقطاعية القديمة والقوى الشعبية الجديدة داخل البلاد. فطبقة ملاك الأراضي الإقطاعية القديمة سيطاح بها وتصبح طبقة محكومة بعد أن كانت حاكمة ، وتضمحل بصورة تدريجية. أما الشعب فسيصبح ، تحت قيادة البروليتاريا ، حاكماً بعد أن كان محكوماً. وهنا يطرأ تبدل على طبيعة المجتمع الصيني ، فيتحول المجتمع القديم شبه المستعمر وشبه الإقطاعي ، إلى مجتمع ديمقراطي جديد.

وفي تجاربنا الماضية أمثلة على هذه التحولات المتبادلة. إن أسرة تشينغ الملكية التي حكمت الصين قرابة ثلاثمائة سنة قد أطيح بها أثناء ثورة 1911 ؛ أما العصبة الثورية تحت قيادة صون يات صن فقد كسبت النصر لفترة من الزمن. وفي الحرب الثورية التي دارت رحاها بين 1924-1927 ، تحولت القوى الثورية في الجنوب التي تمثل التحالف بين الحزب الشيوعي والكومينتانغ من قوة ضعيفة إلى قوة عظيمة ، وكسبت النصر في الحملة الشمالية ؛ أما أمراء الحرب الشماليون ، وقد كانوا أصحاب قوة وجبروت في فترة من الزمن ، فقد اندحروا. وفي عام 1927 أصبحت القوى الشعبية التي يقودها الحزب الشيوعي ضعيفة جداً تحت ضربات قوى الكومينتانغ الرجعية ؛ لكنها تعاظمت من جديد بصورة تدريجية بعد أن استأصلت الانتهازية من صفوفها. وفي القواعد الثورية تحت قيادة الحزب الشيوعي ، تحول الفلاحون من محكومين إلى حاكمين. بينما طرأ على ملاك الأراضي تحول معاكس. وعلى هذا النحو يحدث في العالم باستمرار ، زوال القديم وولادة الجديد ، حلول الجديد محل القديم ، وتحطيم القديم وإنشاء الجديد أو انبعاث الجديد من القديم.

وفي أوقات معينة في مجرى النضال الثوري ، تطغى المصاعب على الظروف المؤاتية ، وحينئذ تشكل المصاعب الطرف الرئيسي للتناقض ، أما الظروف المؤاتية فإنها تشكل الطرف الثانوي. إلا أن الثوريين يستطيعون بفضل جهودهم أن يتغلبوا على الصعوبات خطوة فخطوة وينشأ من ذلك وضع مؤات جديد ، وهكذا يحل الوضع المؤاتي محل الوضع الصعب. تلك كانت الحال بعد إخفاق الثورة في الصين عام 1927 ، وخلال المسيرة الكبرى للجيش الأحمر الصيني. وأن الصين تجد نفسها من جديد ، في الحرب الصينية اليابانية الراهنة ، في وضع عسير ، لكننا نستطيع أن نبدل هذا الوضع ونحقق تحولاً أساسياً في وضع كل من الصين

واليابان. وعلى العكس يمكن للظروف المؤاتية أن تتحول إلى مصاعب إذا ارتكب الثوريون أخطاء. فقد تحول انتصار ثورة 1924-1927 إلى هزيمة ، كما أن القواعد الثورية التي نشأت في المقاطعات الجنوبية منذ عام 1927 قد لحقتها الهزيمة جميعاً عام 1934.

وينطبق الأمر نفسه على التناقض القائم في انتقالنا من الجهل إلى المعرفة أثناء الدراسة. ففي بدء دراستنا للماركسية يقف جهلنا بها أو معرفتنا الزهيدة بها موقف التناقض مع المعرفة الماركسية. لكنا نستطيع بالدراسة المجدة ، أن نتحول من الجهل إلى المعرفة أو من المعرفة الزهيدة إلى معرفة غزيرة ومن التطبيق الأعمى للماركسية إلى تطبيق حاذق لها.

ويظن بعض الناس أن الأمر على خلاف ذلك في بعض التناقضات. مثال ذلك أن القوى المنتجة هي الطرف الرئيسي في التناقض بينها وبين علاقات الإنتاج ؛ وأن الممارسة العملية هي الطرف الرئيسي في التناقض بين النظرية وبينها ؛ وأن القاعدة الاقتصادية هي الطرف الرئيسي في التناقض بينها وبين البناء الفوقي ؛ ولا يحدث تحول متبادل في مركز أي طرف منها. هذه هي نظرية المادية الميكانيكية ، لا نظرية المادية الديالكتيكية. صحيح أن القوى المنتجة ، والممارسة العملية ، والقاعدة الاقتصادية ، تلعب عادة الدور الرئيسي الحاسم ، ومن ينكر هذه الحقيقة لا يكون مادياً. لكن يجب أن نعترف كذلك بأن علاقات الإنتاج والنظرية والبناء الفوقي تلعب بدورها ، في ظل ظروف معينة ، الدور الرئيسي الحاسم. فعندما يتعذر تطور القوى المنتجة بدون تبديل علاقات الإنتاج ، فإن تبديل علاقات الإنتاج يلعب الدور الرئيسي الحاسم. وحين "لا توجد نظرية ثورية لا يمكن أن تكون هناك حركة ثورية"[(22)] كما قال لينين ، فإن خلق النظرية الثورية والدعاية لها يلعب الدور الرئيسي الحاسم. وعندما ينبغي القيام بعمل ما (وهذا ينطبق على أي عمل كان) لكنه لم ترسم بعد سياسة عامة أو طريقة أو خطة أو سياسة محددة ، فإن رسم كل هذه يصبح العامل الرئيسي الحاسم. وعندما يعوق البناء الفوقي ، كالسياسة والثقافة ، تطور القاعدة الاقتصادية ، فإن التجديدات السياسية والثقافية تصبح العامل الرئيسي الحاسم. أترانا نخالف المادية بقولنا هذا؟ كلا. والسبب هو أننا إذ نعترف بأن المادي ، في التطور العام للتاريخ ، هو الذي يقرر الروحي ، وأن الوجود الاجتماعي هو الذي يقرر الوعي الاجتماعي فإننا نعترف أيضاً ، ويجب أن نعترف ، برد فعل الروحي على المادي ، برد فعل الوعي الاجتماعي على الوجود الاجتماعي ، برد فعل البناء الفوقي على القاعدة الاقتصادية. وليس هذا مخالفاً للمادية ، بل يعني بالضبط تفادي المادية الميكانيكية والتمسك الحازم بالمادية الديالكتيكية.

إذا لم نبحث أثناء دراستنا لقضية خاصية التناقض ، مسألة التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية في عملية معينة ومسألة الطرف الرئيسي والطرف غير الرئيسي لتناقض معين ، يعني إذا لم ندرس الفارق المتمثل في كلا هذين الوضعين من أوضاع التناقضات ، فإننا سنتورط في دراسات مجردة ونعجز عن فهم أوضاع التناقضات بصورة محددة ، ونعجز بنتيجة ذلك عن إيجاد الطريقة الصحيحة لحلها. وأن هذا الفارق أو هذه الخاصية المتمثلة في كلا الوضعين تمثل التفاوت بين القوتين المتناقضتين. فلا شيء في العالم يجري في تطورات متساوية بصورة مطلقة ، وينبغي لنا أن نعارض نظرية التطور المتساوي أو نظرية التوازن. وفي الوقت ذاته ، فإن هذه الأوضاع المحددة الخاصة بالتناقض ، والتبدل الذي يطرأ على الطرف الرئيسي والطرف غير الرئيسي للتناقض في مجرى تطوره ، تظهر بالضبط قوة الأشياء الجديدة في إزاحة الأشياء القديمة والحلول محلها. إن دراسة أوضاع التفاوت في التناقضات ، دراسة التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية والطرف الرئيسي وغير الرئيسي للتناقض ، هي إحدى الطرق المهمة التي يقرر بها حزب سياسي ثوري ، بصورة مضبوطة ، خططه الإستراتيجية والتكتيكية في الشؤون السياسية والعسكرية ، وهي دراسة من واجب جميع الشيوعيين أن يولوها الاهتمام.

5- الوحدة والصراع بين طرفي التناقض

بعد أن أوضحنا قضية عمومية التناقض وخاصيته ، يجب أن ننتقل إلى دراسة الوحدة والصراع بين طرفي التناقض.

الوحدة ، الاتحاد ، التطابق ، التداخل ، التمازج ، الاعتماد المتبدل (أو الاعتماد المتبادل في البقاء) ، الترابط أو التعاون ــ هذه العبارات المختلفة جميعاً تعني فكرة واحدة وتقصد هاتين النقطتين التاليتين: أولاً ، أن كل طرف من طرفي التناقض في عملية تطور شيء ما يستلزم وجود الطرف الآخر المتناقض معه ، كشرط مسبق لوجوده هو ، وأن الطرفين يتواجدان في كيان واحد ؛ ثانياً ، أن كل طرف من الطرفين المتناقضين يتحول ، تبعاً لعوامل معينة ، إلى نقيضه. وهذا هو ما يقصد بالوحدة.

لقد قال لينين: "أن الديالكتيك هو النظرية التي تدرس كيف يمكن لضدين أن يكونا متحدين ، وكيف يصيران متحدين (يتبادلان فيصيران متحدين) — في أية ظروف يكونان متحدين ، ويتحول أحدهما إلى نقيضه- ولماذا ينبغي للفكر الإنساني ألا ينظر إلى هذين الضدين كشيئين ميتين جامدين ، بل كشيئين حيين مشروطين قابلين للتبدل ولتحول أحدهما إلى نقيضه."[23]

فماذا يعني لينين بهذه الكلمات ؟

إن الطرفين المتناقضين في أية عملية هما متعارضان ومتصارعان ومتضادان فيما بينهما. ويوجد هذان الطرفان المتناقضان دون استثناء في عمليات تطور جميع الأشياء في العالم وفي الفكر البشري. فالعملية البسيطة تحوي زوجاً واحداً من الأضداد فقط ، بينما تحوي العملية المعقدة أكثر من زوج واحد منها. وبين كل زوج وآخر من الأضداد يقوم أيضاً تناقض ما. وعلى هذا النحو تشكل التناقضات كافة الأشياء في العالم الموضوعي والفكر البشري وتدفعها إلى الحركة.

إذا كان الأمر كذلك فإن كل ما هنالك هو انعدام تام للوحدة والاتحاد ، إذن كيف يمكننا أن نقول أن هناك وحدة أو اتحاداً ؟

السبب في ذلك هو أن كل طرف من الطرفين المتناقضين لا يمكن أن يبقى بمعزل عن الآخر. فكل طرف يفقد شرط وجوده إذا انعدم الطرف الآخر الذي يعارضه. تصوروا ، هل يمكن لأي شيء من الأشياء المتناقضة أو أي مفهوم من المفاهيم المتناقضة في الفكر البشري أن يبقى مستقلاً؟ فلا موت بدون الحياة ؛ ولا حياة بدون الموت. لا "تحت" بدون "فوق" ؛ ولا فوق بدون تحت. لا سعد بدون النحس ؛ ولا نحس بدون السعد. لا عسر بدون اليسر ؛ ولا يسر بدون العسر. لا فلاحين مستأجرين بدون ملاك الأراضي ؛ ولا ملاك أراض بدون الفلاحين المستأجرين. لا بروليتاريا بدون البرجوازية ؛ ولا برجوازية بدون البروليتاريا. لا مستعمرات وأشباه مستعمرات بدون الاضطهاد الامبريالي للشعوب ؛ ولا اضطهاد امبريالي للشعوب بدون مستعمرات وأشباه مستعمرات. هكذا فإن كل عنصرين متضادين هما ، بفعل عوامل معينة ، متعارضان من جهة ، ومترابطان ، متمازجان ، متداخلان ، يعتمد بعضهما على بعض من جهة أخرى ، وهذا هو المقصود بالوحدة. أن كل طرفين متناقضين هما ، بسبب عوامل معينة ، متسمان بعدم الوحدة بينهما ، لذلك نقول أنهما متناقضان. ولكنهما في الوقت ذاته متسمان بسمة الوحدة ، فهما لذلك مترابطان. وهذا هو ما يشير إليه لينين بقوله أن الديالكتيك يدرس "كيف يمكن لضدين أن يكونا متحدين". كيف يمكن أن يكونا متحدين ؟ يمكن ذلك لأن كلا منهما يشكل شرط وجود الآخر. هذا هو المعنى الأول للوحدة.

لكن هل يكفي أن نقول فقط أن كل طرف من طرفي التناقض يشكل شرطاً لوجود الطرف الآخر ، وأن ثمة وحدة بينهما ، ولذلك يمكنهما أن يتواجدا في كيان واحد؟ كلا ، لا يكفي ذلك. فالأمر لا ينتهي عند حد الاعتماد المتبادل في البقاء بين الطرفين المتناقضين ، وإنما الأهم من ذلك هو تحول أحدهما إلى نقيضه. وهذا يعني أن كلاً من الطرفين المتناقضين في شيء ينزع ، بسبب عوامل معينة ، إلى التحول إلى الطرف المناقض له ، وأن ينتقل إلى مركز نقيضه. هذا هو المعنى الثاني لوحدة طرفي التناقض.

لماذا توجد هنا وحدة أيضاً؟ انظروا ، أن البروليتاريا التي كانت محكومة تصبح هي الحاكمة بواسطة الثورة ، بينما البرجوازية ، وهي الحاكمة في الأصل ، تصبح هي المحكومة وتنتقل إلى المركز الذي كان نقيضها يشغله من قبل. وهذا ما حدث في الاتحاد السوفياتي ، وسيحدث في العالم بأسره. وإني لأود أن أسأل: كيف يمكن أن يحدث هذا التبدل لو لم يكن ثمة ترابط ووحدة بين الطرفين المتناقضين بسبب عوامل معينة ؟

إن الكومينتانغ الذي لعب دوراً إيجابياً معيناً في مرحلة معينة من تاريخ الصين الحديث قد تحول منذ عام 1927 ، بسبب طبيعته الطبقية الكامنة فيه ونتيجة إغراء الإمبريالية (هذه هي العوامل)، إلى حزب معاد للثورة ، لكنه اضطر ، بسبب اشتداد التناقض بين الصين واليابان وسياسة الجبهة المتحدة التي انتهجها الحزب الشيوعي (هذه هي العوامل)، إلى الموافقة على مقاومة اليابان. فهناك نوع من الوحدة بين شيئين متناقضين في تحول أحدهما إلى نقيضه.

إن الثورة الزراعية التي سبق أن قمنا بها كانت ، وستكون ، عملية تتحول فيها طبقة ملاك الأراضي المستحوذة على الأرض إلى طبقة محرومة منها ، بينما يتحول الفلاحون ، وقد كانوا محرومون من أرضهم ، إلى صغار أصحاب ملكيات خاصة بحصولهم على الأرض ، فالتملك والحرمان ، الحصول على الأرض وفقدانها ، طرفان مترابطان بسبب عوامل معينة ، وثمة وحدة بينهما. وفي ظل الاشتراكية يتحول نظام الملكية الخاصة للفلاحين بدوره إلى نظام الملكية العامة للزراعة الاشتراكية ، ولقد حدث هذا في الاتحاد

السوفياتي ، وسوف يحدث في العالم بأسره. ثمة جسر بين الملكية الخاصة والملكية العامة يوصل الأولى إلى الأخيرة ، وهو يدعى في الفلسفة بالوحدة ، أو تحول الشيء إلى نقيضه أو التداخل.

وإن توطيد دكتاتورية البروليتاريا أو دكتاتورية الشعب يعني بالضبط تهيئة الظروف لتصفية هذه الدكتاتورية والتقدم إلى مرحلة أعلى ، مرحلة يتم فيه القضاء على جميع أنظمة الدولة. وأن تأسيس الحزب الشيوعي وتطويره يعني بالضبط تهيئة الظروف للقضاء على الحرب إلى الأبد. إن هذه الأشياء متناقضة لكنها يكمل بعضها بعضاً في الوقت ذاته.

ويعلم الجميع أن الحرب والسلم يتحول أحدهما إلى الآخر. فالحرب تتحول إلى السلم ، مثال ذلك أن الحرب العالمية الأولى قد تحولت إلى سلم ما بعد الحرب ، والحرب الأهلية في الصين قد توقفت الآن أيضاً وحل السلم الداخلي مكانها. وأن السلم يتحول إلى الحرب ، مثال ذلك أن التعاون بين الكومينتانغ والحزب الشيوعي عام 1927 قد تحول إلى الحرب ، وأن الوضع العالمي السلمي الراهن قد يتحول هو الآخر إلى حرب عالمية ثانية. ما سبب ذلك ؟ السبب هو أن مثل هذه الأشياء المتناقضة من حرب وسلم في المجتمع الطبقي تتسم بسمة الوحدة بسبب عوامل معينة.

إن كل متناقضين مترابطان ، فهما يتواجدان في كيان واحد في ظل عوامل معينة ، بل يتحول أحدهما إلى الآخر في ظل عوامل معينة ، هذا هو كامل معنى وحدة الضدين. وهو بالضبط ما عناه لينين عندما قال: "كيف يصيران متحدين (يتبدلان فيصيران متحدين) — في أية ظروف يكونان متحدين ، ويتحول أحدهما إلى نقيضه".

"ولماذا ينبغي للفكر الإنساني ألا ينظر إلى هذين الضدين كشيئين ميتين جامدين ، بل كشيئين حيين مشروطين قابلين للتبدل ولتحول أحدهما إلى نقيضه"؟ لأن تلك هي بالضبط حقيقة الأشياء الموضوعية. إن وحدة أو اتحاد طرفي كل تناقض في الأشياء الموضوعية هي بطبيعتها ليست بالشيء الميت ، الجامد ، بل هي شيء حي ، مشروط ، قابل للتبدل ، مؤقت ، نسبي ، فكل طرف من طرفي أي تناقض يتحول بفعل عوامل معينة إلى نقيضه. وبانعكاس هذه الحقيقة في الفكر الإنساني تتكون النظرة الديالكتيكية المادية الماركسية إلى العالم. إن الطبقات الرجعية التي تحكم اليوم ، والتي حكمت في الماضي على حد سواء ، والميتافيزيقا التي في خدمتها ، هي وحدها التي لا تنظر إلى الأضداد كأشياء حية مشروطة ، قابلة للتبدل يتحول بعضها إلى نقيضه ، بل تنظر إليها كأشياء ميتة ، جامدة ، وتنشر هذه النظرة المغلوطة في كل مكان وتضلل جماهير الشعب ، لتحقيق هدفها في الإبقاء على حكمها. وأن واجب الشيوعيين بالضبط هو فضح فكرة الرجعية والميتافيزيقا المغلوطة هذه ، ونشر الديالكتيك الكامن في الأشياء ، والعمل على التعجيل بتحول الأشياء حتى يحققوا أهداف الثورة.

وعندما نقول أن ثمة وحدة بين ضدين في ظل عوامل معينة ، فإننا نعني أن الأضداد التي نتحدث عنها هي أضداد حقيقية ، أضداد ملموسة ، وأن تحول كل من الضدين إلى الآخر هو أيضاً تحول حقيقي وملموس. والتحولات المتنوعة التي ذكرت في الأساطير "كمطاردة كوا فو للشمس" في "كتاب الجبال والبحار"[(24)] ، و "إسقاط يى للشموس التسع" في كتاب "هواي نان تسي"[(25)] ، وتحول سون وو كونغ من صورته إلى اثنتين وسبعين صورة كما ذكر في "الحج إلى الغرب"[(26)] ، والحكايات العديدة في "الغرائب المسجلة في قاعة السمر"[(27)] التي تتحدث عن أشباح وثعالب تقمصت صورة الكائنات البشرية..الخ ، إن تحولات الأضداد بعضها إلى بعض ، التي ترويها هذه الأساطير هي ضرب من التحولات الصبيانية الخيالية التي نسجتها التصورات الذاتية نتيجة لانعكاس التحولات التي لا حصر لها للأضداد المعقدة الحقيقية في أذهان الناس ، وليست تحولات ملموسة كالتي تظهر في الأضداد الملموسة. ولقد قال ماركس: "إن كل الأساطير تسخر قوى الطبيعة وتسيطر عليها ، وتجسدها ، في الخيال وبواسطته ؛ ولذلك تختفي الأساطير حالما يتمكن الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة."[(28)] ورغم أن قصص التحولات التي لا تنتهي في هذه الأساطير (وفي حكايات الأطفال أيضاً) تبعث السرور في قلوب الناس لأنها تتخيل تسخير الإنسان لقوى الطبيعة وغير ذلك ، وأن أروع الأساطير هي ذات "سحر خالد" كما قال ماركس ، إلا أنها لا ترتكز على عوامل معينة لتناقضات ملموسة ، لذلك فهي ليست انعكاساً علمياً للواقع. وهذا يعني أن الأطراف التي تشكل التناقضات في الأساطير أو في حكايات الأطفال ليس لها وحدة حقيقية ، بل وحدة خيالية لا غير. إن الديالكتيك الماركسي هو الذي يعكس الوحدة في التحولات الواقعية بصورة علمية.

لماذا يمكن للبيضة لا الحجر أن تتحول إلى كتكوت ؟ لماذا توجد وحدة بين الحرب و السلم ولا توجد بين الحرب والحجر ؟ لماذا تستطيع الكائنات البشرية أن تلد كائنات بشرية فقط لا كائنات أخرى ؟ السبب في ذلك ليس سوى أو وحدة الضدين توجد في ظل عوامل ضرورية معينة فقط ، ولا يمكن أن يكون هناك أي وحدة من دون عوامل ضرورية معينة.

ولماذا كانت ثورة فبراير (شباط) 1917 الديمقراطية البرجوازية في روسيا مرتبطة بصورة مباشرة مع ثورة أكتوبر (تشرين الأول) الاشتراكية البروليتارية الناشبة في السنة نفسها ، بينما لم ترتبط الثورة البرجوازية في فرنسا بصورة مباشرة مع ثورة اشتراكية ، وانتهت كومونة باريس عام 1871[29] إلى الإخفاق أخيراً ؟ لماذا ارتبط نظام البداوة في منغوليا وآسيا الوسطى بالاشتراكية مباشرة ؟ ولماذا يمكن للثورة الصينية أن تتجنب مستقبلاً رأسمالياً فترتبط بالاشتراكية مباشرة دون اجتياز الطريق التاريخي القديم الذي اجتازته البلدان الغربية ، دون أن تمر بمرحلة من الديكتاتورية البرجوازية ؟ ليس السبب في ذلك سوى العوامل المحددة الكائنة في وقتها. وعندما تتوفر العوامل الضرورية المعينة ، ينشأ تناقض معين أو أكثر من تناقض في عملية تطور الشيء ، وبالإضافة لذلك فإن طرفي هذا التناقض أو أطراف التناقضات يعتمد بعضها على البعض الآخر في البقاء ، ويتحول بعضها إلى بعض ، وإلا لما كان شيء من هذا ممكناً.

تلك هي قضية الوحدة. فما هو الصراع إذن ؟ وما هي العلاقة بين الوحدة والصراع ؟

لقد قال لينين: " إن اتحاد (تطابق ، وحدة ، تواحد) الضدين مشروط ، مؤقت ، عارض ، نسبي. أما صراع الضدين المتعارضين فهو مطلق ، تماماً كما أن التطور والحركة مطلقان."[30]

فما الذي يعنيه لينين هنا ؟

إن لجميع العمليات بداية ونهاية ، وكل عملية تتحول إلى نقيضها. إن ثبات جميع العمليات نسبي ، أما تغيرها الذي يظهر في تحول عملية إلى عملية أخرى فهو مطلق.

إن كل شيء يتخذ في حركته شكلين: شكل السكون النسبي ، وشكل التبدل الملحوظ. وإن كلا شكلي الحركة مسبب عن صراع العاملين المتناقضين اللذين ينطوي عليهما الشيء. فعندما يتخذ الشيء في حركته الشكل الأول ، فإنه يطرأ عليه تبدل كمي فقط لا تبدل نوعي ، لذلك يبدو في حالة من السكون الظاهري. وعندما يتخذ الشيء في حركته الشكل الثاني ، فإنه يكون قد بلغ نقطة معينة هي قمة التبدل الكمي الذي حصل في الشكل الأول ، فيتسبب عن ذلك تفكك الكيان الواحد ، ويحدث تبدل نوعي ، لذلك يبدو الشيء في حالة من التبدل الملحوظ. وأن ما نشاهده في الحياة اليومية من وحدة وتضامن واندماج وانسجام وتوازن وتعادل وتأزق وسكون وثبات وتواز وتخثر وانجذاب..الخ ، هي جميعاً ظواهر الأشياء وهي في حالة تبدل كمي. ومن جهة أخرى فإن تفكك الكيان الواحد ، وانحطام حالة التضامن والاندماج والانسجام والتوازن والتعادل والتأزق والسكون والثبات والتوازي والتخثر والانجذاب..الخ ، وتحولها إلى حالات مضادة لها ، هي جميعاً ظواهر الأشياء وهي في حالة تبدل نوعي أثناء انتقال عملية إلى عملية أخرى. إن الأشياء تتحول على الدوام من الشكل الأول إلى الشكل الثاني بلا انقطاع بينما صراع الضدين موجود في كلا الشكلين ويتم حل التناقضات بواسطة الشكل الثاني. لذلك نقول أن اتحاد الضدين مشروط ومؤقت ونسبي ، بينما الصراع بين ضدين متعارضين هو مطلق.

وقد قلنا آنفاً أن ثمة وحدة بين شيئين متضادين ، لذلك يمكنهما أن يتواجدا في كيان واحد ويمكن أيضاً لكل منهما أن يتحول إلى نقيضه ، ونحن نقصد بذلك الشرطية ، أي أن الضدين يمكنهما تحت عوامل معينة أن يتحدا وأن يتحول أحدهما إلى نقيضه ؛ وبدون هذه العوامل لا يمكن لشيئين أن يصبحا ضدين ، ولا يمكن أن يتواجدا ولا أن يتحول أحدهما إلى نقيضه. ولما كانت وحدة الضدين لا تتحقق إلا بوجود عوامل معينة ، قلنا أن الوحدة مشروطة ونسبية. ثم أضفنا أن صراع الضدين يسري في العملية من البداية حتى النهاية وبسبب تحول عملية إلى عملية أخرى ، وأن صراع الضدين موجود في كل شيء ، لذلك نقول أن صراع الضدين غير مشروط ومطلق.

إن الوحدة المشروطة النسبية تشكل مع الصراع المطلق غير المشروط حركة التناقض في جميع الأشياء.

ونحن الصينيين كثيراً ما نقول: "شيئان متناقضان يكمل أحدهما الآخر." وهذا يعني أن ثمة وحدة بين المتناقضين. وهذه ملاحظة ديالكتيكية ، وهي منافية للميتافيزيقا. ويعني "التناقض" هنا تعارض الطرفين المتناقضين أو صراعهما. ويعني "يكمل

أحدهما الآخر" أن الطرفين المتناقضين يترابطان في ظل عوامل معينة ، وتتم الوحدة بينهما. فالصراع يكمن بالضبط في الوحدة ، ولا وحدة بدون صراع.

إن في الوحدة صراعاً ، وفي الخاصية عمومية ، وفي الصفة الفردية صفة مشتركة ، هذا ما يقصده لينين حين قال: "فثمة مطلق في النسبي"[32].

6- مركز التعادي في التناقض

من بين المسائل المتعلقة بصراع الضدين مسألة التعادي بينهما وما هو. وجوابنا على ذلك هو أن التعادي شكل من أشكال صراع الضدين ، لكنه ليس الشكل الوحيد.

في التاريخ البشري يوجد التعادي الطبقي ، وهو مظهر خاص من مظاهر صراع الضدين. إن التناقض قائم بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة ، سواء في المجتمع العبودي أو في المجتمع الإقطاعي أو في المجتمع الرأسمالي ، وهاتان الطبقتان المتناقضتان تتعايشان وتتصارعان زمناً طويلاً في مجتمع واحد ، لكن الجانبين لا يتخذان شكل التعادي الصريح الذي يتطور إلى ثورة إلا بعد أن ينمو التناقض بين الطبقتين ويبلغ مرحلة معينة. ومثل ذلك تحول السلم إلى حرب في المجتمع الطبقي.

إن المرحلة التي تمر على القنبلة قبل انفجارها هي مرحلة تتواجد فيها المتناقضات في كيان واحد بسبب عوامل معينة. ولا يقع الانفجار إلا عندما يحصل عامل جديد (الاشتعال). وثمة وضع مماثل في جميع الظواهر الطبيعية عندما تتخذ في النهاية شكل التعادي الصريح كي تحل تناقضات قديمة وتنتج أشياء جديدة.

وإنه لأمر فائق الأهمية أن ندرك هذا. فهو يساعدنا على أن نفهم أن الثورات والحروب الأهلية لا يمكن تجنبها في المجتمع الطبقي ، وبدونها يستحيل تحقيق أي قفزة في التطور الاجتماعي ، والإطاحة بالطبقات الحاكمة الرجعية ، ليظفر الشعب بالسلطة السياسية. وينبغي للشيوعيين أن يفضحوا الدعايات المضللة التي ينشرها الرجعيون عن عدم ضرورة الثورة الاجتماعية واستحالتها وغير ذلك ، وأن يتمسكوا بالنظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاجتماعية بحيث يساعدون الشعب على أن يفهم أن الثورة الاجتماعية ليست ضرورية كل الضرورة فحسب ، بل هي ممكنة كل الإمكان أيضاً ، وهي حقيقة علمية قد أكدها تاريخ الجنس البشري كله وانتصار الاتحاد السوفياتي.

على أنه ينبغي لنا أن ندرس مختلف أنواع الصراع بين الأضداد بصورة محددة ، ولا ينبغي لنا أن نفرض بصورة تعسفية الصيغة المذكورة آنفاً على كل شيء. إذ أن التناقض والصراع شيئان عامان ومطلقان ، إلا أن طرق حل التناقضات ، أي أشكال الصراع ، تختلف تبعاً لاختلاف طبيعة التناقضات. فبعض التناقضات تتميز بصفة عدائية مكشوفة ، وبعضها على خلاف ذلك. وتبعاً للتطور المحدد للأشياء ، تتطور بعض التناقضات التي كانت في الأصل ذات صفة غير عدائية فتصبح تناقضات ذات صفة عدائية ؛ وهناك تناقضات أخرى هي في الأصل ذات صفة عدائية ، ولكنها تتطور فتصير تناقضات صفتها غير عدائية.

وكما أشرنا آنفاً ، فإن التناقض بين الأفكار الصحيحة والأفكار الخاطئة داخل الحزب الشيوعي هو انعكاس للتناقضات الطبقية في الحزب ، عندما تكون الطبقات موجودة. وليس محتماً أن يظهر هذا التناقض فوراً ، في البداية ، أو فيما يتعلق بمسائل خاصة ، في شكل عدائي. لكنه يمكن أن يتطور ، مع تطور الصراع الطبقي ويصبح تناقضاً ذا صفة عدائية. إن تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يبين لنا أن التناقض بين التفكير الصحيح للينين وستالين والتفكير الخاطئ لتروتسكي[33] وبوخارين وآخرين ، لم يظهر في البداية في شكل التعادي ، لكنه تطور فيما بعد وأصبح تناقضاً ذا صفة عدائية. وقد حدث مثل ذلك في تاريخ الحزب الشيوعي الصيني. فالتناقض بين التفكير الصحيح لعدد كبير من رفاقنا في الحزب وبين التفكير الخاطئ لتشن دو شيو وتشانغ قوه تاو وآخرين لم يظهر في البداية في شكل التعادي ، لكنه تطور فيما بعد وأصبح تناقضاً ذا صفة عدائية. والتناقض بين التفكير الصحيح والتفكير الخاطئ في حزبنا في الوقت الراهن لم يظهر في شكل التعادي ، وهو لن يتطور إلى تناقض ذي صفة عدائية إذا أصلح الرفاق المخطئون أخطاءهم. ولهذا ينبغي للحزب من جهة أن يخوض غمار صراع جدي ضد التفكير الخاطئ ، وينبغي له من جهة أخرى أن يعطي الفرصة الكافية للرفاق الذين ارتكبوا أخطاء كي يدركوا أخطاءهم. ومن الواضح أن خوض صراع

مبالغ فيه ضدهم في مثل هذه الحال أمر غير مناسب. لكنه إذا أصر المخطئون على أخطائهم وتمادوا فيها فمن الممكن أن يتطور التناقض ويصبح تناقضاً ذا صفة عدائية.

وفي المجتمع الرأسمالي (حيث تنهب المدينة في ظل الحكم البرجوازي الريف دونما شفقة أو رحمة) وفي المناطق التي يسيطر عليها الكومينتانغ في الصين (حيث تقوم المدينة في ظل حكم الإمبريالية الأجنبية والبرجوازية الكومبرادورية الكبيرة المحلية بنهب الريف في وحشية بالغة) فإن التناقض بين المدينة والريف من الناحية الاقتصادية هو تناقض في أعلى درجات التعادي. لكن مثل هذا التناقض ذي الصفة العدائية يصبح ، في بلد اشتراكي وفي قواعدنا الثورية ، تناقضاً ذا صفة غير عدائية ، وهو سوف يتلاشى عندما يظهر المجتمع الشيوعي إلى الوجود.

لقد قال لينين: "إن التعادي والتناقض شيئان مختلفان كل الاختلاف. ففي ظل الاشتراكية سيتلاشى التعادي ، أما التناقض فيظل قائماً."[34]

وهذا يعني أن التعادي ليس سوى شكل من أشكال صراع الضدين ، وليس الشكل الوحيد ، فلا يجوز أن نفرض هذه الصيغة على كل شيء.

7- خاتمة

نستطيع الآن ، وقد بلغنا هذا الحد ، أن نجمل كل ما ذكرناه في عبارات موجزة. إن قانون التناقض في الأشياء أي قانون وحدة الضدين هو القانون الأساسي في الطبيعة والمجتمع وهو بالتالي القانون الأساسي للتفكير.

إنه مناقض للنظرة الميتافيزيقية إلى العالم. وهو يعني ثورة عظيمة في تاريخ المعرفة البشرية. ووفقاً لوجهة نظر المادية الديالكتيكية ، فإن التناقض يوجد في جميع عمليات الأشياء الموضوعية والتفكير الذاتي ويسري في جميع العمليات من البداية حتى النهاية ، هذه هي عمومية التناقض وإطلاقه. ولكل تناقض وكل طرف من طرفي التناقض خصائصه ، هذه هي خاصية التناقض ونسبيته. والشيئان المتضادان بينهما وحدة في ظل عوامل معينة ، ولهذا يمكنهما أن يتعايشا في كيان واحد ، ويمكن أيضاً لكل منهما أن يتحول إلى نقيضه ، و هذه هي أيضاً خاصية التناقض ونسبيته. لكن صراع الضدين لا ينقطع ، فالصراع يوجد حين يتعايش الضدان أو حين يتحول أحدهما إلى نقيضه على حد سواء ، والصراع واضح على الأخص في الحالة الأخيرة ، وهذه هي أيضاً عمومية التناقض وإطلاقه. وحين ندرس خاصية التناقض ونسبيته ، ينبغي أن نلاحظ الفرق بين ما هو رئيسي وما هو غير رئيسي من التناقضات ومن أطراف التناقضات ؛ وحين ندرس عمومية التناقض والصراع القائم فيه ، ينبغي أن نلاحظ الفرق بين مختلف أشكال صراع الضدين ؛ وإلا وقعنا في خطأ. وإذا فهمنا حقاً ، بعد الدراسة ، النقاط الجوهرية المذكورة أعلاه فإننا نستطيع إذن أن نسحق تلك الأفكار العقائدية الجامدة المخالفة للمبادئ الأساسية للماركسية اللينينية والمؤذية لقضيتنا الثورية ؛ وكذلك يمكن لرفاقنا المجربين أن ينظموا خبرتهم ويبلوروها في شكل مبادئ متجنبين بذلك تكرار أخطاء التجريبية. وهذه هي بعض النتائج البسيطة التي توصلنا إليها في دراستنا لقانون التناقض.

ملاحظات

(1) انظر "ملخص مبحث "فلسفة مدرسة الايليين" من الجزء الأول من "تاريخ الفلسفة" لهيجل" ، المدون في "الدفاتر الفلسفية" ، تأليف لينين.

(2) يقول لينين في كتابه "في مسألة الديالكتيك": أن انقسام شيء واحد إلى شطرين وإدراك أجزائه المتناقضة هو جوهر الديالكتيك". ويقول أيضاً في "ملخص "علم المنطق" لهيجل": "يمكن تلخيص الديالكتيك وتعريفه بأنه نظرية وحدة الضدين. وبذلك نستطيع الإمساك بلب الديالكتيك ، غير أن هذا يتطلب إيضاحاً وتطويراً."

(3) ديبورين (1881-1963) فيلسوف سوفياتي ، عضو أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتي. في عام 1930 شنت الأوساط الفلسفية في الاتحاد السوفياتي حملة نقد ضد مدرسة ديبورين ، أشارت فيها إلى أن أتباع المدرسة ارتكبوا أخطاء ذات صفة مثالية حيث فصلوا النظريات عن الممارسة العملية والفلسفة عن السياسة — المعرب.

(4) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(5) قال دونغ جونغ شو (179-104 ق.م) الممثل الشهير للمدرسة الكونفوشيوسية في أسرة هان ، للإمبراطور وو دي: "أن عظمة "داو" مصدرها السماء ، السماء لا تتبدل ، وداو كذلك لا تتبدل." وكلمة "داو" اصطلاح شائع الاستعمال لدى فلاسفة الصين القدامى ، وهي تعني "الدرب" أو "المبدأ" ، ويمكن تفسيرها بمعنى "القانون" أو "الناموس".

(6) انجلز: "ضد دوهرنك" ، الباب الأول ، المبحث الثاني عشر: "الديالكتيك. الكمية والنوعية".

(7) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(8) انجلز: "ضد دوهرنك" ، الباب الأول ، المبحث الثاني عشر: "الديالكتيك. الكمية والنوعية".

(9) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(10) كان بوخارين (1888-1938) زعيماً لجماعة مناهضة للينينية في حركة الثورة الروسية ، ثم طرد من الحزب عام 1937 بسبب اشتراكه في طغمة خونة للوطن ، وفي عام 1938 حكمت عليه المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي بالإعدام. ونقد الرفيق ماو تسي تونغ هنا رأياً خاطئاً أصر عليه بوخارين زمناً طويلاً ، مؤداه التستر على التناقضات الطبقية ، وإحلال التعاون الطبقي محل الصراع الطبقي. وفي فترة ما بين 1928 و 1929 ، حينما كان الاتحاد السوفياتي على استعداد لتطبيق النظام الجماعي على الزراعة بصورة شاملة ، عرض بوخارين هذا الرأي الخاطئ في صورة أكثر سفوراً ، وحاول بكل جهوده ستر التناقضات الطبقية القائمة بين الكولاك وبين الفلاحين الفقراء والفلاحين المتوسطين ، وعارض خوض نضال حازم ضد الكولاك زاعماً أنه يمكن إقامة تحالف بين الطبقة العاملة والكولاك ، وأنه في وسع الكولاك أن "يصلوا إلى الاشتراكية بصورة سلمية" — المعرب.

(11) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(12) انظر مقالة "الشيوعية" (المؤلفات الكاملة للينين ، المجلد الحادي والثلاثين) ، والتي نقد لينين فيها بيلاكون أحد أعضاء الحزب الشيوعي المجري بقوله أنه "قد تخل عن الشيء الجوهري الأول في الماركسية ، أي روحها الحية ، وهو التحليل المحدد للظروف المحددة."

(13) سون تسي ، ويدعى أيضاً سون وو ، أو سون وو تسي ، عالم في العلوم العسكرية عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، ألف كتاباً بعنوان "سون تسي" في 13 فصلاً. وهذه العبارة مأخوذة من الفصل الثالث من الكتاب تحت عنوان "إستراتيجية الهجوم".

(14) وي تشنغ (580-643) رجل سياسي ومؤرخ عاش في أوائل أسرة تانغ. وهذه العبارة مأخوذة من كتاب "تسي تشي تونغ جيان" (عبر الأيام في حكم الأنام)، الجزء الثاني والتسعين بعد المائة.

(15) "أبطال على شاطئ البحيرة" رواية دونت وقائع حرب فلاحية دارت رحاها في أواخر أسرة سونغ الشمالية. وسونغ جيانغ هو الشخصية الرئيسية في هذه الرواية. وتقع قرية تشو بالقرب من بحيرة ليانغشانبوه قاعدة حرب الفلاحين، وكان سيد القرية مالك أراض طاغية يدعى تشو تشاو فنغ.

(16) حيلة حصان طروادة قصة معروفة في الأساطير اليونانية، تقول أن الإغريق حاصروا مدينة طروادة زمناً طويلاً دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها، فتظاهروا بالانسحاب، وخلفوا في ثكناتهم خارج المدينة حصاناً خشبياً ضخماً يكمن في جوفه عدد من المقاتلين الأشداء. ولم يفطن الطرواديون إلى حيلة العدو فأدخلوا الحصان الخشبي مدينتهم باعتباره غنيمة من غنائم الحرب. ولما جن الليل خرج المقاتلون من جوف الحصان وهجموا على الطرواديين على حين غرة، واستولوا على المدينة سريعاً بالتعاون مع رجالهم الذين كانوا قد عادوا وتربصوا خارج المدينة — المعرب.

(17) لينين: "مزيد من القول حول النقابات والوضع الراهن وأخطاء تروتسكي وبوخارين".

(18) المقاطعات الشمالية الشرقية الأربع كانت وقتذاك هي مقاطعات لياونينغ وجيلين وخيلونغجيانغ ورهخه الواقعة بشمال الصين الشرقي (وتضم هذه المنطقة اليوم مقاطعات لياونينغ وجيلين وخيلونغجيانغ، والجزء الشمالي الشرقي من مقاطعة خبى الواقع شمال السور العظيم، والجزء الشرقي من منطقة منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتي — المعرب)، وبعد وقوع حادثة 18 سبتمبر (أيلول) 1931 استولت القوات اليابانية المعتدية على لياونينغ وجيلين وخيلونغجيانغ، ثم استولت على رهخه عام 1933.

(19) كان جيش الشمال الشرقي الكومينتانغي الذي يقوده تشانغ شيويه ليانغ، والجيش السابع عشر الكومينتانغي الذي يقوده يانغ خو تشنغ وافقا، بتأثير الجيش الأحمر الصيني والحركة الشعبية المعادية لليابان، على سياسة الجبهة الوطنية المتحدة ضد اليابان، التي تقدم بها الحزب الشيوعي الصيني، فطالبا تشيانغ كاي شيك بالتحالف مع الحزب الشيوعي الصيني بهدف مقاومة اليابان. بيد أن تشيانغ كاي شيك رفض طلبهما هذا، بل تمادى في غيه، حيث باشر بنشاط أعظم تدبير حملات "إبادة الشيوعيين"، وقتل الشبان المناهضين لليابان في شيآن. فقام تشانغ شيويه ليانغ ويانغ خو تشنغ بعمل مشترك حيث اعتقلا تشيانغ كاي شيك، هذه هي حادثة شيآن المشهورة التي وقعت في 12 ديسمبر (كانون الأول) 1936. اضطر تشيانغ كاي شيك حينئذ إلى قبول الشروط التي تقضي بالتحالف مع الحزب الشيوعي من أجل مقاومة اليابان، وعلى أثر ذلك تم إطلاق سراحه وعاد إلى نانكين.

(20) خلال عشرات السنوات منذ أواخر القرن الثامن عشر ظلت بريطانيا تصدر الأفيون إلى الصين بكميات متزايدة. وقد ألحقت بريطانيا بذلك ضرراً بالغاً بصحة أبناء الشعب الصيني، ونهبت من الصين كميات كبيرة من الفضة. وقد قاومت الصين تجارة الأفيون. وفي عام 1840 أرسلت الحكومة البريطانية قواتها لغزو الصين بحجة حماية التجارة البريطانية. وخاضت قوات الصين بقيادة لين تسه شيو حرب المقاومة ضد الغزاة. ونظم أهالي قوانغتشو (كانتون) من تلقاء أنفسهم "فصائل قمع البريطانيين"، وأنزلوا ضربات قاسية بالغزاة البريطانيين. وفي عام 1842 عقدت حكومة أسرة تشينغ المتفسخة مع الغزاة البريطانيين "معاهدة نانكين" التي تنص، إلى جانب دفع تعويضات لبريطانيا والتخلي لها عن هونغ كونغ، على فتح موانئ شانغهاي وفوتشو وشيامن (آموي) ونينغو وقوانغتشو في وجه التجارة البريطانية وتحديد الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية المصدرة إلى الصين عن طريق التشاور بين الطرفين الصيني والبريطاني.

(21) وقعت الحرب الصينية اليابانية عام 1894 من جراء عدوان اليابان على كوريا واستفزازاتها ضد قوات الصين البرية والبحرية. وقد قاتلت القوات الصينية في الحرب بشجاعة وبسالة. ولكن نظراً لتفسخ حكومة أسرة تشينغ وانعدام الاستعداد لصد العدوان بحزم انهزمت الصين في الحرب. وفي عام 1895 عقدت حكومة تشينغ مع اليابان "معاهدة شيمونوسيكي" المخزية.

(22) لينين: "ما العمل ؟" ، الفصل الأول ، المبحث الرابع.

(23) لينين: "ملخص "علم المنطق" لهيجل".

(24) ألف "كتاب الجبال والبحار" في عصر الممالك المتحاربة (403-221 ق.م). وفي الكتاب أسطورة تقول أن كوافو ، وهو شخصية أسطورية ، طارد الشمس ، فلما وصل إلى مغرب الشمس عطش عطشاً شديداً فشرب ماء النهر الأصفر ونهر وي فلم يرتو ، فاتجه شمالاً ليشرب من نهر أعظم ، وفي منتصف الطريق مات من العطش الشديد. أما عصاه التي خلفها فقد تحولت إلى غابة.

(25) يى هو بطل من الأبطال الأسطوريين عند قدماء الصين ، اشتهر بمهارته في رمي النبال. وتقول أسطورة في "خواي نان تسي" ، وهو كتاب صنفه ليو آن (كان من الأشراف عاش في القرن الثاني قبل الميلاد) ، أنه "أشرقت في عهد الإمبراطور ياو عشر شموس في وقت واحد ، فأحرقت جميع الزروع والنباتات ، وحرمت الشعب مما يقتات به ، وفي الوقت نفسه خرجت الأرواح الخبيثة تفسد في الأرض في صورة السباع والجوارح والثعابين ، فأمر الإمبراطور ياو البطل يى بأن يرمي الشموس العشر في السماء والأرواح الخبيثة في الأرض... وفرح الشعب بذلك جميعاً." ويقول وانغ يى (وهو مؤلف مشهور عاش في القرن الثاني بعد الميلاد) في شرحه لقصيدة "الاحتجاج على السماء" للشاعر كيويوان: "ذكر "خواي نان تسي" أنه أشرقت عشر شموس في عهد الإمبراطور ياو فأحرقت الزروع والنباتات. فأمر الإمبراطور ياو البطل يى بأن يرمي الشموس فأسقط تسعاً منها... وأبقى واحدة."

(26) "الحج إلى الغرب" قصة صينية أسطورية كتبت في القرن السادس عشر. وبطل القصة سون وو كونغ إله القرود يملك قدرة عجيبة على أن يغير صورته حسب إرادته إلى اثنتين وسبعين صورة كالطيور والوحوش والحشرات والأسماك والرياحين والأشجار والأدوات والكائنات البشرية.

(27) "الغرائب المسجلة في قاعة السمر" مجموعة قصص كتبها بو سونغ لينغ من عهد تشينغ ، الذي عاش في القرن السابع عشر ، وهي تضم 431 قصة قصيرة مأخوذة من الأقاصيص الشعبية ومعظمها حكايات عن الجن والأشباح والثعالب.

(28) ماركس: "مقدمة في نقد علم الاقتصاد السياسي".

(29) كانت كومونة باريس أول جهاز للسلطة البروليتارية في تاريخ العالم. ففي 18 مارس (آذار) 1871 قامت البروليتاريا الفرنسية بانتفاضة في باريس واستولت على السلطة. وفي 28 من نفس الشهر أنشئت عن طريق الانتخاب كومونة باريس بقيادة البروليتاريا. وكانت كومونة باريس أول تجربة للثورة البروليتارية في تحطيم جهاز الدولة البرجوازية ، وأول عمل عظيم في نوعه لإحلال السلطة البروليتارية محل السلطة البرجوازية المحطمة. ونظراً لأن البروليتاريا الفرنسية يومذاك لم تكن ناضجة تماماً ، فإنها لم تعر اهتماماً للاتحاد مع الجمهور الغفير من حلفائها الفلاحين ، وفضلاً عن ذلك فقد تساهلت كثيراً مع العناصر المعادية للثورة فلم توجه إليها هجمات عسكرية حازمة في حينها ، الأمر الذي تمكنت معه القوى المعادية للثورة من أن تجمع قواتها المشتتة في تؤدة وتعود لسفك دماء جماهير الشعب التي قامت بالانتفاضة ، في جنونية ووحشية. وانتهى أمر الكومونة بالفشل في 28 مايو (أيار) — المعرب.

(30) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(31) ظهرت هذه العبارة للمرة الأولى في "تاريخ أسرة هان الأولى" الذي كتبه بان قو (وهو مؤرخ صيني شهير عاش في القرن الأول بعد الميلاد)، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه العبارة شائعة الاستعمال.

(32) لينين: "في مسألة الديالكتيك".

(33) كان تروتسكي (1879-1940) زعيماً لجماعة معادية للينينية في الحركة الثورية الروسية، ثم انزلق تماماً في هوة العصابة المعادية للثورة. وطرد من الحزب الشيوعي السوفياتي من قبل اللجنة المركزية للحزب عام 1927. وفي عام 1929 طردته الحكومة السوفياتية خارج الحدود. وفي عام 1932 سحبت منه الجنسية السوفياتية. ومات عام 1940 خارج الاتحاد السوفياتي – المعرب.

(34) راجع تعليق لينين على كتاب "الاقتصاد في مرحلة الانتقال" لبوخارين.

حول المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب

(27 فبراير – شباط – 1957)

إن الموضوع العام الذي سأتناوله في خطابي الآن هو مسألة المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب. لقد قسمت هذا الموضوع إلى اثني عشر فصلاً تسهيلاً للبحث. وسأتناول كذلك في هذا الخطاب مسألة التناقضات بيننا وبين أعدائنا ، غير أني سأركز البحث على مسألة التناقضات بين صفوف الشعب

1- نوعان من التناقضات مختلفان من حيث طبيعتهما

إن بلادنا لم تكن ، في أي وقت مضى ، متحدة كما هي عليه اليوم. فبفضل انتصار الثورة الديمقراطية البرجوازية والثورة الاشتراكية ، وكذلك بفضل النجاحات التي حققناها في البناء الاشتراكي ، تغير وجه الصين القديمة سريعاً. إن مستقبلاً أكثر إشراقاً ينفتح أمام وطننا. وقد ولّى إلى غير رجعة ذلك الوضع الذي يمقته الشعب والذي كانت فيه البلاد منقسمة تسودها الفوضى والاضطراب. وشعب بلادنا البالغ 600 مليون نسمة يعمل الآن متحداً كرجل واحد ، بقيادة الطبقة العاملة والحزب الشيوعي ، على البناء الاشتراكي العظيم. إن وحدة البلاد ، واتحاد الشعب ، واتحاد جميع القوميات داخل البلاد ، هي الضمانات الأساسية التي تكفل الانتصار الأكيد لقضيتنا. ولكن هذا لا يعني أن مجتمعنا بات خالياً من كل تناقض. إن فكرة الخلو من التناقضات هي فكرة ساذجة لا تنطبق على الواقع الموضوعي. إننا نواجه نوعين من التناقضات الاجتماعية هما التناقضات بيننا وبين أعدائنا ، والتناقضات بين صفوف الشعب. وهذا النوعان من التناقضات يختلفان اختلافاً تاماً من حيث طبيعتهما.

ولكن ندرك إدراكاً صحيحاً هذين النوعين المختلفين من التناقضات ، أعني التناقضات بيننا وبين أعدائنا والتناقضات بين صفوف الشعب ، ينبغي لنا قبل كل شيء أن نعرف من هو "الشعب" ومن هم "الأعداء". إن مفهوم "الشعب" يختلف من حيث المضمون باختلاف البلدان وباختلاف الفترات التاريخية التي يمر بها كل بلد. لنأخذ مثلاً الوضع في بلادنا ، ففي مرحلة حرب المقاومة ضد اليابان كانت جميع الطبقات والفئات والكتل الاجتماعية التي تقاوم العدوان الياباني تنتمي إلى فصيلة الشعب ، بينما كان الإمبرياليون اليابانيون والخونة والعناصر الموالية لليابان هم أعداء الشعب. وفي مرحلة الحرب التحررية كان الامبرياليون الأمريكيون وأذنابهم —البرجوازية البيروقراطية وطبقة ملاك الأراضي ورجعيو الكومينتانغ الذين يمثلون هاتين الطبقتين- هم أعداء الشعب ، بينما كانت جميع الطبقات والفئات والكتل الاجتماعية المناهضة لهؤلاء الأعداء ، تنتمي إلى فصيلة الشعب. وفي المرحلة الحاضرة ، مرحلة بناء الاشتراكية ، فإن جميع الطبقات والفئات والكتل الاجتماعية التي تفضل وتؤيد قضية البناء الاشتراكي وتسهم فيها ، تنتمي إلى فصيلة الشعب ، بينما جميع القوى والكتل الاجتماعية التي تقاوم الثورة الاشتراكية وتعادي البناء الاشتراكي وتعمل على تقويضه ، تعد كلها أعداء للشعب.

إن التناقضات بيننا وبين أعدائنا هي تناقضات ذات صفة عدائية. أما في صفوف الشعب ، فإن التناقضات بين الكادحين إنما هي تناقضات صفتها غير عدائية ، بينما التناقضات بين الطبقات المستغلة (بفتح الغين) والطبقات المستغلة (بكسر الغين) تحوي ، إلى جانب صفتها العدائية ، صفة أخرى غير عدائية. والتناقضات بين صفوف الشعب ليست وليدة اليوم ، إلا أن محتواها يختلف في كل مرحلة من مراحل الثورة وفي مرحلة البناء الاشتراكي. وفي ظروف الصين الراهنة ، تشتمل التناقضات بين صفوف

هذا هو الخطاب الذي ألقاه ماو تسي تونغ في الدورة الحادية عشرة (الموسعة) لمؤتمر الدولة الأعلى. وقد راجع الرفيق ماو تسي تونغ خطابه من المحضر وأدخل عليه بعض الإضافات قبل أن تنشره جريدة جينمينجيباو (جريدة الشعب اليومية) بتاريخ 19 يونيو (حزيران) 1957.

الشعب على التناقضات داخل الطبقة العاملة ، والتناقضات داخل طبقة الفلاحين ، والتناقضات بين المثقفين ، والتناقضات بين الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين والتناقضات بين العمال والفلاحين من جهة والمثقفين من جهة أخرى ، والتناقضات بين الطبقة العاملة وسائر الكادحين من جهة والبرجوازية الوطنية من جهة أخرى ، والتناقضات في داخل صفوف البرجوازية الوطنية..الخ. إن حكومتنا الشعبية هي حكومة تمثل مصالح الشعب تمثيلاً حقيقياً ، إنها حكومة تخدم الشعب ، إلا أنه توجد بينها وبين الجماهير الشعبية أيضاً تناقضات معينة ، وهي تتضمن التناقضات بين مصالح الدولة والمصالح الجماعية وبين المصالح الشخصية ، والتناقضات بين الديمقراطية والمركزية ، والتناقضات بين الرؤساء والمرؤوسين ، والتناقضات بين أسلوب العمل البيروقراطي الذي يتبعه بعض موظفي دوائر الدولة وبين الجماهير. وهذا النوع من التناقضات يعد أيضاً من التناقضات بين صفوف الشعب. إن التناقضات بين صفوف الشعب هي ، بوجه عام ، تناقضات قائمة على أساس كون مصالح الشعب واحدة بصورة أساسية.

إن التناقض بين الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية الوطنية في بلادنا هو في عداد التناقضات بين صفوف الشعب. كما أن الصراع الطبقي بينهما هو ، عموماً ، صراع طبقي داخل صفوف الشعب ، ذلك لأن للبرجوازية الوطنية في بلادنا طابعاً مزدوجاً. ففي مرحلة الثورة الديمقراطية البرجوازية ، كانت هذه الطبقة ثورية من جهة ومائلة للمساومة مع العدو من جهة أخرى. وفي مرحلة الثورة الاشتراكية ، تقوم من جهة باستغلال الطبقة العاملة وتجني من وراء ذلك الأرباح ، وهي من جهة أخرى تؤيد الدستور وترغب في قبول التحويل الاشتراكي. إن البرجوازية الوطنية تختلف عن الامبريالية وطبقة ملاك الأراضي والبرجوازية البيروقراطية. والتناقض القائم بين الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية هو تناقض بين المستغل (بفتح الغين) والمستغل (بكسر الغين)، وهو بطبيعته تناقض ذو صفة عدائية ، غير أنه من الممكن ، في ظروف بلادنا الخاصة ، أن يتحول هذا التناقض الطبقي ذو الصفة العدائية إلى تناقض ليست له صفة عدائية ويحل بطرق سلمية إذا ما عولج بطريقة صائبة. أما إذا لم نعالج هذا التناقض معالجة صحيحة ولم نتبع تجاه البرجوازية الوطنية سياسة الاتحاد والنقد والتثقيف ، أو إذا رفضت البرجوازية الوطنية سياستنا هذه ، فإن التناقض بين الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية سيتحول إلى تناقض بيننا وبين أعدائنا.

وبما أن التناقضات بيننا وبين أعدائنا والتناقضات بين صفوف الشعب –هذين النوعين من التناقضات يختلفان من حيث طبيعتهما ، فإن طرق حلهما كذلك مختلفة. وموجز القول أن النوع الأول من التناقضات يتعلق بمسألة رسم خط فاصل بيننا وبين أعدائنا ، أما النوع الثاني منها فهو يتعلق بمسألة التمييز بين الحق والباطل. ومن الطبيعي أن مسألة رسم خط فاصل بيننا وبين أعدائنا هي في نفس الوقت مسألة تمييز بين الحق والباطل. ومثال ذلك أن مسألة من هو على حق ، نحن أم الرجعيون المحليون والأجانب- الإمبرياليون والإقطاعيون والرأسماليون البيروقراطيون ، هي أيضاً مسألة تمييز بين الحق والباطل ، إلا أنها مسألة تختلف من حيث طبيعتها عن مسألة التمييز بين الحق والباطل داخل صفوف الشعب.

إن دولتنا هي دولة الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية ، هذه الدكتاتورية التي تقودها الطبقة العاملة وتقوم على أساس التحالف بين العمال والفلاحين. فما هي وظائف هذه الدكتاتورية ؟ إن وظيفتها الأولى هي: في الداخل ، كبت الطبقات الرجعية والرجعيين والمستغلين (بكسر الغين) المعادين للثورة الاشتراكية ، وكبت جميع من يعملون على تقويض البناء الاشتراكي وذلك من أجل حل التناقضات بيننا وبين أعدائنا في داخل البلاد. ويدخل في نطاق وظائف دكتاتوريتنا ، على سبيل المثال ، اعتقال بعض العناصر المعادية للثورة وإصدار الحكم عليها ، وحرمان ملاك الأراضي والبرجوازيين البيروقراطيين من حقهم في الانتخاب ومن حرية الكلام لفترة محدودة من الزمن. ومن أجل الحفاظ على الأمن العام وضمان مصالح الجماهير الشعبية الغفيرة ، يجب أيضاً تطبيق الدكتاتورية على اللصوص والمحتالين والقتلة ومرتكبي جرائم الإحراق عن عمد وعصابات الأشقياء وسائر الأشرار الذين يخلون بالأمن العام إخلالاً خطيراً. أما الوظيفة الثانية للدكتاتورية فهي حماية الدولة من النشاطات الهدامة والعدوان المحتمل من قبل الأعداء في الخارج. فإذا ما وقع ذلك ، كان على الدكتاتورية أن تتولى مهمة حل التناقضات بيننا وبين أعدائنا في الخارج. إن هدف هذه الدكتاتورية هو حماية شعبنا كله حتى يستطيع أن يعمل في سلام ، ويبني الصين حتى تصبح دولة اشتراكية ذات صناعة حديثة وزراعة حديثة وعلوم حديثة وثقافة حديثة. فمن الذي يمارس هذه الدكتاتورية ؟ من الطبيعي أن الطبقة العاملة والشعب الذي تقوده هذه الطبقة هما اللذان يمارسانها. إن الدكتاتورية لا تطبق داخل صفوف الشعب. فيستحيل أن يمارس الشعب الدكتاتورية على نفسه ، وأن يضطهد قسم من الشعب قسماً آخر منه. ومع أنه يجب إنزال العقوبات ، طبقاً للقانون ، بمخالفي

القانون من أفراد الشعب إلا أن بين هذا وبين استخدام الدكتاتورية لقمع أعداء الشعب فرقاً مبدئياً. إن ما يطبق داخل صفوف شعبنا هو المركزية الديمقراطية. وينص دستورنا على أن المواطنين في جمهورية الصين الشعبية يتمتعون بحرية الكلام والنشر والاجتماع وتنظيم الجمعيات ، وحرية تنظيم المواكب والمظاهرات ، وحرية العقائد الدينية ، وغيرها من الحريات. وينص دستورنا أيضاً على أنه تطبق المركزية الديمقراطية في دوائر الدولة ، وأنه يجب على دوائر الدولة أن تستند إلى الجماهير الشعبية ، ويجب على العاملين في هذه الدوائر أن يخدموا الشعب. إن ديمقراطيتنا الاشتراكية هي أوسع ديمقراطية لا يمكن أن توجد في أية دولة برجوازية على الإطلاق. إن دكتاتوريتنا تعرف باسم الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية التي تقودها الطبقة العاملة وتقوم على أساس التحالف بين العمال و الفلاحين. وهذا يعني تطبيق الديمقراطية داخل صفوف الشعب بينما تقوم الطبقة العاملة ، بالاتحاد مع كل الذين يتمتعون بالحقوق المدنية ، وقبل كل شيء مع الفلاحين ، بممارسة الدكتاتورية على الطبقات الرجعية والرجعيين والعناصر التي تقاوم التحويل الاشتراكي والبناء الاشتراكي. والتمتع بالحقوق المدنية معناه ، من الناحية السياسية ، التمتع بحقوق الحرية والديمقراطية.

ولكن هذه الحرية هي الحرية التي تمارس تحت القيادة ، وهذه الديمقراطية هي الديمقراطية التي تمارس بالتوجيه الممركز ، وليست فوضى. فإن الفوضى لا تتفق مع مصالح الشعب وأمانيه.

لقد طرب بعض الناس في بلادنا حين وقعت أحداث هنغاريا[1] ، وأخذوا يمنون أنفسهم بشهود أحداث مماثلة في الصين ، حيث يخرج ألوف وألوف من الناس إلى الشوارع ويتظاهرون ضد الحكومة الشعبية. إن آمالهم هذه تتنافى مع مصالح الجماهير الشعبية ، ولا يمكن أن تحظى بمساندة الجماهير. إن قسماً من الجماهير في هنغاريا خدعته القوى المعادية للثورة في داخل البلاد وخارجها ، فلجأ مخطئاً إلى أعمال العنف ضد الحكومة الشعبية مما أضر بالدولة والشعب معاً. ولقد حل ، من جراء الفتنة التي دامت عدة أسابيع ، ضرر بالاقتصاد يتطلب التعويض عنه فترة طويلة من الزمن. وهناك عدد آخر من الناس في بلادنا أبدوا تردداً حيال قضية هنغاريا لأنهم يجهلون حقيقة الوضع في العالم. فهم يعتقدون أن الحرية ضيقة جداً في ظل ديمقراطيتنا الشعبية ، وأن هناك حرية أوفر في ظل الديمقراطية البرلمانية في الغرب. ولذا فإنهم يطالبون بإقامة نظام الحزبين السائد في الغرب حيث يكون أحد الحزبين في الحكم ليس سوى وسيلة من وسائل المحافظة على دكتاتورية البرجوازية ولا يمكنه مطلقاً أن يؤمن للكادحين حرياتهم. والواقع أنه ليس في العالم إلا حرية ملموسة وديمقراطية ملموسة ، وليس هناك حرية مجردة وديمقراطية مجردة. ففي مجتمع يدور فيه الصراع الطبقي ، إذا تمتعت الطبقات المستغلة (بكسر الغين) بحرية استغلال الكادحين ، حرم الكادحون من حرية رفض الاستغلال ، وإذا تمتعت فيه البرجوازية بالديمقراطية حرمت منها البروليتاريا والكادحون. إن بعض البلدان الرأسمالية تسمح بوجود الأحزاب الشيوعية بصورة شرعية ، ولكن بالقدر الذي لايؤدي إلى الإضرار بمصالح البرجوازية الأساسية ، أما إذا تجاوز الأمر هذا القدر فلن تسمح بوجودها. إن من يطالبون بالحرية المجردة وبالديمقراطية المجردة يعتبرون الديمقراطية غايتهم ولا يسلمون بأنها وسيلة. وتبدو الديمقراطية في بعض الأحيان وكأنها غاية ، ولكنها في الحقيقة ليست إلا وسيلة. فالماركسية تعلمنا أن الديمقراطية جزء من البناء الفوقي ، وأنها تدخل في باب السياسة وهذا معناه أن الديمقراطية ، في التحليل النهائي ، تخدم القاعدة الاقتصادية. ونفس التفسير ينطبق على الحرية. فالديمقراطية والحرية نسبيتان وليستا مطلقتين ، وتظهران وتتطوران في ظروف تاريخية معينة. وفي داخل صفوف الشعب ، ترتبط الديمقراطية بالمركزية وترتبط الحرية بالنظام. ويعني ذلك وجود طرفين متضادين في كيان واحد ، وهذان الطرفان متناقضان ومتحدان في آن واحد ، ولذلك لا يجوز لنا أن نؤكد بصورة وحيدة الجانب على أحدهما وننكر الآخر. فالحرية لا غنى عنها بين صفوف الشعب ، كما أنه يستحيل الاستغناء عن النظام في الوقت ذاته ؛ وكذلك لا غنى عن الديمقراطية بين صفوف الشعب ، ويستحيل في الوقت ذاته الاستغناء عن المركزية. إن هذا النوع من الوحدة بين الديمقراطية والمركزية ، وبين الحرية والنظام ، هو الذي يتكون منه نظام مركزيتنا الديمقراطية. ففي ظل هذا النظام يتمتع الشعب بقسط وافر من الديمقراطية والحرية ، ولكن عليه في نفس الوقت أن يقيد نفسه بالنظام الاشتراكي. وهذه الحقيقة تعرفها جماهير الشعب الغفيرة.

وحين ندعو إلى الحرية التي تمارس تحت القيادة وإلى الديمقراطية التي تمارس بالتوجيه الممركز ، فإن هذا لا يعني أبداً أن المسائل الفكرية ومسألة التمييز بين الحق والباطل داخل صفوف الشعب يمكن أن تحل بأساليب الإكراه. إن المحاولات الرامية

إلى حل المسائل الفكرية ومسألة التميز بين الحق والباطل بأساليب الأوامر الإدارية وبوسائل الإكراه ليست محاولات عقيمة وحسب ، بل هي مضرة أيضاً. فلا يمكن لنا إلغاء الدين بالأوامر الإدارية ولا إجبار الناس على عدم الإيمان به. ولا يمكن حمل الناس على نبذ المثالية ، كما أنه لايمكن إجبارهم على الإيمان بالماركسية. إن جميع المسائل ذات الصفة الأيديولوجية وجميع المسائل المختلف عليها داخل صفوف الشعب ، لا يمكن أن تحل إلا بالأساليب الديمقراطية ، كأساليب المناقشة ، والنقد ، والإقناع والتثقيف ، ولا يمكن حلها بأساليب الإكراه والضغط. ولكي يتمكن الشعب من ممارسة الإنتاج والدراسة على نحو مثمر ومن العيش في أوضاع يسودها النظام ، فإنه يطالب حكومته والمسئولين عن الإنتاج وعن المؤسسات الثقافية والتربوية بأن يصدروا مختلف الأوامر الإدارية المناسبة ذات الطابع الإلزامي. فبدون هذه الأوامر الإدارية تستحيل المحافظة على الأمن العام ، وهذا أمر واضح يدركه كل إنسان له معارف أولية. إن الأوامر الإدارية ، وأسلوب الإقناع والتثقيف يشكلان أسلوبين يكمل أحدهما الآخر في حل التناقضات بين صفوف الشعب. وحتى الأوامر الإدارية التي تصدر للمحافظة على الأمن العام ينبغي أن تكون مصحوبة بالإقناع والتثقيف ، لأن الاعتماد على الأوامر الإدارية وحدها لا يجدي نفعاً في كثير من الحالات.

لقد لخصنا في عام 1942 هذه الأساليب الديمقراطية لحل التناقضات بين صفوف الشعب في صيغة "وحدة - نقد — وحدة". وإذا أردنا التعبير عن ذلك بالتفصيل قلنا: ننطلق من الرغبة في الوحدة ، ونحل التناقضات عن طريق النقد أو الصراع ، ونتوصل بذلك إلى وحدة جديدة على أساس جديد. ويتضح من تجاربنا أن هذا هو الأسلوب الصحيح لحل التناقضات داخل الحزب الشيوعي ، أي التناقضات بين نزعة الجمود العقائدي وبين الجماهير الواسعة من أعضاء الحزب ، والتناقضات بين نزعة الجمود العقائدي وبين الماركسية. ففي الماضي ، كان أصحاب نزعة الجمود العقائدي "اليساريون" يلجأون في الصراع الداخلي في الحزب إلى الطريقة المسماة بـ "الصراع القاسي والضرب بلا رحمة". إن هذه الطريقة خاطئة. ونحن ، في انتقادنا لنزعة الجمود العقائدي "اليسارية" ، لم نتبع هذه الطريقة القديمة ، بل اتبعنا طريقة جديدة — هي الانطلاق من الرغبة في الوحدة ، والتمييز بين الحق والباطل عن طريق النقد أو الصراع ، والتوصل إلى وحدة جديدة على أساس جديد. وقد استعملت هذه الطريقة إبان حملة الإصلاح التي جرت عام 1942. وبعد بضع سنوات ، حين انعقد المؤتمر الوطني السابع للحزب الشيوعي الصيني عام 1945 ، تم الوصول بالفعل إلى تحقيق وحدة صفوف الحزب بأسره ، وبفضل ذلك أحرزت الثورة الشعبية نصراً عظيماً. إن تطبيق هذه الطريقة يستلزم قبل كل شيء الانطلاق من رغبة في الوحدة. فإذا لم تكن هناك رغبة ذاتية في الوحدة فلابد أن يؤدي الصراع إلى فوضى يصعب الخلاص منها. ألا يعني هذا نفس طريقة "الصراع القاسي والضرب بلا رحمة" فأية وحدة يمكن أن تتحقق في الحزب في مثل هذه الحالة ؟ إننا على ضوء هذه التجربة اهتدينا إلى هذه الصيغة: "وحدة - نقد — وحدة" ، وبعبارة أخرى: "الاتعاظ بالأخطاء الماضية بهدف تفادي الأخطاء في المستقبل ومعالجة الداء بهدف إنقاذ المريض". إن هذه الطريقة نفسها عممناها خارج الحزب أيضاً وطبقناها في جميع مناطق القواعد لمقاومة اليابان في معالجة العلاقات بين القادة والجماهير ، والعلاقات بين الجيش والشعب ، والعلاقات بين الضباط والجنود, والعلاقات بين مختلف وحدات الجيش ، والعلاقات بين الجماعات المختلفة من الكوادر ، فأحرزنا نجاحات عظيمة. فيما يتعلق بهذه القضية ، يمكن أن نعود بذاكرتنا إلى فترات سابقة من تاريخ حزبنا. فإننا ، منذ إنشاء قوات مسلحة ثورية وقواعد ثورية في جنوب البلاد عام 1927 ، أخذنا نطبق هذه الطريقة في معالجة العلاقات بين الحزب والجماهير ، وبين الجيش والشعب ، وبين الضباط والجنود ، وسائر العلاقات داخل صفوف الشعب. بيد أننا طبقناها بمزيد من الوعي إبان حرب المقاومة ضد اليابان. وبعد تحرير البلاد كلها ، طبقنا أيضاً طريقة "وحدة - نقد — وحدة" حيال الأحزاب الديمقراطية والأوساط الصناعية والتجارية. ومهمتنا الحالية هي أن نواصل تعميم هذه الطريقة ونستخدمها على وجه أفضل داخل صفوف الشعب كله وأن ندعو جميع المصانع والتعاونيات والبيوت التجارية ومؤسسات التعليم والدوائر الحكومية والمنظمات الشعبية ، وباختصار ندعو شعبنا بملايينه الستمائة إلى تطبيق تلك الطريقة لأجل حل التناقضات في داخلها.

إن التناقضات بين صفوف الشعب في الظروف العادية ليست تناقضات ذات صفة عدائية. ولكنها قد تصبح ذات صفة عدائية إذا عولجت بطريقة غير ملائمة ، أو إذا ضعفت يقظتنا وقل حذرنا. ومثل هذه الحالات في البلدان الاشتراكية هي في العادة ظاهرة جزئية ومؤقتة ليس إلا. والسبب في ذلك يعود إلى أن نظام استغلال الإنسان للإنسان قد أزيل في البلدان الاشتراكية ، وأن مصالح الشعب فيها واحدة في الأساس. إن الأعمال العدائية التي وقعت على نطاق واسع نسبياً أثناء أحداث هنغاريا كانت تعود إلى

الدور الذي لعبته العناصر المعادية للثورة في الداخل والخارج. وهذه ظاهرة خاصة وعابرة. فالرجعيون في البلدان الاشتراكية يتواطأون مع الامبرياليين ويستغلون التناقضات القائمة بين صفوف الشعب فيعمدون إلى بذر بذور الشقاق وإثارة الاضطرابات بغية الوصول إلى مآربهم التآمرية. إن هذا الدرس المستخلص من أحداث هنغاريا جدير بانتباهنا.

يبدو لكثير من الناس أن الدعوة إلى إتباع الأساليب الديمقراطية في حل التناقضات بين صفوف الشعب هي مسألة جديدة ، ولكنها في الواقع ليست كذلك. فيرى الماركسيون على الدوام أن قضية البروليتاريا لا يمكن تحقيقها إلا بالاعتماد على الجماهير الشعبية ، وأن على الشيوعيين ، أثناء قيامهم بعملهم بين الكادحين ، أن يتبعوا أساليب الإقناع والتثقيف الديمقراطية ، ولا يجوز لهم بتاتاً أن يلجأوا إلى أساليب إصدار الأوامر والإكراه. إن الحزب الشيوعي الصيني يتمسك مخلصاً بهذا المبدأ الماركسي اللينيني. ونحن نرى على الدوام أنه في ظل الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية ينبغي إتباع طريقتين مختلفتين أي الدكتاتورية لحل التناقضات بيننا وبين أعدائنا والديمقراطية لحل التناقضات بين صفوف الشعب وهما نوعان من التناقضات يختلفان من حيث طبيعتهما. لقد سبق توضيح هذه الفكرة مراراً في كثير من وثائق حزبنا وفي أحاديث كثير من مسئولي حزبنا. وقد قلت في المقالة التي كتبتها عام 1949 بعنوان "الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية" أنه "إذا جمعنا بين الديمقراطية إزاء الشعب والدكتاتورية على الرجعيين تكونت منهما الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية" ، وأن "الأسلوب الذي نستخدمه" في حل المسائل القائمة داخل صفوف الشعب "هو أسلوب ديمقراطي ، أي أسلوب الإقناع وليس أسلوب الإكراه". وقلت أيضاً في الخطاب الذي ألقيته خلال الدورة الثانية للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني في يونيو (حزيران) 1950 أن "الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية تتضمن طريقتين: فتستخدم حيال الأعداء طريقة الدكتاتورية ، ومعنى هذا أنه في غضون فترة لازمة من الزمن ، لا يسمح للأعداء بالاشتراك في النشاط السياسي ، ويرغمون على إطاعة قوانين الحكومة الشعبية ، وعلى القيام بالعمل الجسماني وإعادة تكوينهم أيديولوجياً عن طريق العمل الجسماني حتى يصبحوا أناساً جدداً. أما بالنسبة للشعب فالأمر على نقيض ذلك إذ لا تستخدم طريقة الإكراه بل الطريقة الديمقراطية ، ومعنى هذا أنه من الضروري أن يسمح للشعب بالاشتراك في النشاط السياسي وألا يجبر على فعل هذا أو ذاك ، بل تستخدم الطريقة الديمقراطية لتثقيفه وإقناعه. ومثل هذا التثقيف هو تثقيف ذاتي بين صفوف الشعب ، وطريقة النقد والنقد الذاتي هي الطريقة الأساسية للتثقيف الذاتي." لقد تكلمنا فيما مضى مراراً عن مسألة إتباع الطريقة الديمقراطية في حل التناقضات بين صفوف الشعب ، وقد اتبعناها بصورة أساسية في أعمالنا ، وكثير من الكوادر وأبناء الشعب يعرفون ذلك معرفة عملية. فلماذا يبدو اليوم لبعض الناس أن هذه المسألة جديدة ؟ ذلك لأن الصراع بيننا وبين أعدائنا في الداخل والخارج كان في غاية الحدة ، والتناقضات بين صفوف الشعب لم تكون وقتذاك ملفتة للأنظار كما هي عليه اليوم.

وهناك كثير من الناس يعجزون عن التمييز بوضوح بين هذين النوعين من التناقضات المختلفين من حيث طبيعتهما ، أي التناقضات بيننا وبين أعدائنا والتناقضات بين صفوف الشعب ، فمن السهولة أن يلتبس عليهم أمرهما. ويجب الاعتراف بأنه من السهولة في بعض الأحيان الخلط بين هذين النوعين من التناقضات. وقد حدث في أعمالنا الماضية أن خلطنا بينهما. وفي خلال عملنا لاستئصال العناصر المعادية للثورة ، اعتبر بالخطأ أناس أبرياء كعناصر سيئة. لقد حدث مثل هذا في الماضي ويحدث في الوقت الحاضر أيضاً. وقد استطعنا حصر أخطائنا في نطاق ضيق نظراً لأن سياستنا تنص على أن من الضروري رسم خط فاصل بيننا وبين أعدائنا ، وأنه حيثما وقعت أخطاء وجب اتخاذ إجراءات لرد اعتبار من أخطأنا في حقهم.

تعتبر الفلسفة الماركسية أن قانون وحدة الضدين هو القانون الأساسي للكون. وهذا القانون كامن سواء في الطبيعة أو في المجتمع البشري أو في تفكير الإنسان. فتوجد بين الضدين في تناقض ما وحدة وصراع في آن واحد ، وهذا ما يبعث الحركة والتغير في الأشياء. إن التناقضات موجودة في كل شيء ، إلا أن طبيعتها تختلف باختلاف طبيعة الأشياء. فوحدة الضدين في التناقض الكامن في كل شيء محدد هي ظاهرة مشروطة ، ومؤقتة ، وانتقالية ، وهي لذلك نسبية ، أما الصراع بينهما فإنه يبقى مطلقاً. لقد شرح لينين هذا القانون بكل وضوح. والذين يدركون هذا القانون في بلادنا يتزايد عددهم أكثر فأكثر. بيد أن الاعتراف بهذا القانون هو بالنسبة كثير من الناس شيء وتطبيقه في بحث وحل المسائل هو شيء آخر. هناك كثير من الناس لا يجرؤون على الاعتراف جهاراً بأن ثمة تناقضات لا تزال قائمة بين صفوف شعبنا ، وأن هذه التناقضات هي التي تدفع مجتمعنا إلى الأمام. ونظراً لأن كثيراً من الناس لا يعترفون بأن هناك تناقضات لا تزال باقية في المجتمع الاشتراكي ، فإنهم حين تواجههم التناقضات القائمة في هذا المجتمع

، يتقاعسون ويترددون ويصبحون في موضع سلبي ، فهم لا يدركون أن الوحدة والتضامن داخل المجتمع الاشتراكي ستزداد قوة ومتانة في سياق معالجة وحل التناقضات بصورة صحيحة ومتواصلة. فالضرورة تقتضي إذن أن نقوم بتوضيح ذلك بين صفوف شعبنا وبين الكوادر قبل غيرهم. لمساعدتهم على تفهم التناقضات في المجتمع الاشتراكي وعلى معرفة كيفية استخدام الأساليب الصحيحة لحل هذه التناقضات.

إن التناقضات في المجتمع الاشتراكي تختلف اختلافاً جذرياً عن التناقضات في المجتمعات القديمة ، كالتناقضات في المجتمع الرأسمالي مثلاً. فالتناقضات في المجتمع الرأسمالي تظهر في صورة عداء حاد وصدام عنيف ، إنها تظهر في صراع طبقي عنيف ، ولا يمكن إيجاد حل لها عن طريق النظام الرأسمالي نفسه ، وإنما هي تحل بالثورة الاشتراكية وحدها. أما التناقضات في المجتمع الاشتراكي فهي ، على النقيض من ذلك ، ليست تناقضات ذات صفة عدائية ، ولذلك يمكن حلها واحداً بعد آخر عن طريق النظام الاشتراكي نفسه.

إن التناقضات بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة ، والتناقضات بين البناء الفوقي والقاعدة الاقتصادية لا تزال هي التناقضات الأساسية في المجتمع الاشتراكي ، إلا أن تناقضات المجتمع الاشتراكي هذه تختلف اختلافاً جذرياً ، من حيث طبيعتها وأوضاعها ، عن التناقضات بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة ، والتناقضات بين البناء الفوقي والقاعدة الاقتصادية في المجتمعات القديمة. إن النظام الاجتماعي في بلادنا اليوم أفضل بكثير من النظام الاجتماعي في العهد القديم. ولو لم يكن كذلك لما أمكن الإطاحة بالنظام القديم وإقامة النظام الجديد. وحين نقول أن علاقات الإنتاج الاشتراكية ، بالمقارنة مع علاقات الإنتاج في العهد القديم ، هي أكثر توافقاً مع حاجة تطور القوى المنتجة ، إنما نقصد بذلك أن علاقات الإنتاج الاشتراكية هذه تتيح للقوى المنتجة أن تتطور بسرعة لم يشهدها المجتمع القديم وبذلك يتسع نطاق الإنتاج باطراد وتسد تدريجياً حاجات الشعب المتزايدة. وفي الصين القديمة ظل تطور القوى المنتجة يجري على نحو بطيء للغاية تحت سيطرة الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية البيروقراطية. فخلال خمسين سنة وأكثر قبل تحرر البلاد كلها ، كان إنتاج الفولاذ في البلاد ، ما عدا إنتاجه في شمال شرقي الصين ، لا يتعدى بضع عشرات الآلاف من الأطنان سنوياً. وإذا أضفنا الإنتاج في الشمال الشرقي كان أقصى إنتاج سنوي للفولاذ في البلاد كلها لا يزيد على تسعمائة ألف طن إلا قليلاً. وفي عام 1949 ، كان مجمل إنتاج الفولاذ في البلاد بأسرها لا يتجاوز مائة ألف وعشرات آلاف الأطنان ، ولكن لم يمض على تحرر كل البلاد إلا سبع سنوات حتى زاد إنتاج الفولاذ السنوي إلى أربعة ملايين وبضع مئات الألوف من الأطنان. ولم يكن في الصين القديمة أي وجود تقريباً لصناعة الآلات ، ناهيك عن صناعات السيارات والطائرات. أما الآن فقد أصبحت لدينا هذه الصناعات الثلاث. ففي أي اتجاه يجب أن تسير الصين بعد أن أطاح شعبها بحكم الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية البيروقراطية ؟ أتتجه إلى الرأسمالية أم إلى الاشتراكية ؟ ثمة كثير من الناس ليست لديهم معرفة واضحة إزاء هذه المسألة. ولكن الحقائق نفسها قد أجابت على هذه المسألة: من شأن الاشتراكية وحدها إنقاذ الصين. لقد دفع النظام الاشتراكي تطور القوى المنتجة في بلادنا بسرعة فائقة. وهذه حقيقة لا يسع حتى الأعداء في الخارج إلا أن يعترفوا بها.

غير أن النظام الاشتراكي لم ينشأ في بلادنا إلا منذ زمن قريب ، ولم يكتمل تشييده وتوطيده بعد. ففي المؤسسات الصناعية والتجارية المشتركة الي تملكها الدولة والأفراد معاً ، ما برح الرأسماليون يتقاضون فوائد محددة النسبة[2] ، أي أن الاستغلال ما زال موجوداً ؛ أما من حيث الملكية ، فإن هذا النوع من المؤسسات لم يصبح بعد اشتراكياً بكل معنى الكلمة من حيث طبيعته. وهناك أيضاً قسم من تعاونيات الإنتاج الزراعي والإنتاج الحرفي لا يزال متسماً بطابع شبه اشتراكي ؛ وفي التعاونيات الكاملة الاشتراكية لا يزال الأمر يتطلب مواصلة حل بعض المسائل المتعلقة بالملكية. وفي جميع فروع الاقتصاد لا تزال العلاقة بين الإنتاج وتبادل السلع تقام بصورة تدريجية وفقاً للمبادئ الاشتراكية وتتخذ شيئاً فشيئاً الأشكال الملائمة لها. وفي الاقتصاد القائم على ملكية كل الشعب والاقتصاد القائمة على الملكية الجماعية ، وفيما بين هذه الشكلين من الاقتصاد الاشتراكي ، تظل قضية النسبة بين التراكم والاستهلاك قضية معقدة ليس من السهل أن تحل بصورة معقولة تماماً وفي دفعة واحدة. وموجز القول أن علاقات الإنتاج الاشتراكية قد تمت إقامتها وهي تتوافق مع تطور القوى المنتجة ، ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال وهي من هذه الناحية في حالة تناقض مع تطور القوى المنتجة. وبالإضافة إلى هذا الوضع الذي تتوافق فيه علاقات الإنتاج مع تطور القوى المنتجة. وتكون في ذات الوقت بحالة تناقض معه ، يبرز وضع آخر يكون فيه البناء الفوقي متوافقاً مع القاعدة الاقتصادية ولكنه في

نفس الوقت بحالة تناقض معها. ذلك أن البناء الفوقي – نظام دولة الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية وقوانينها وكذلك الأيديولوجية الاشتراكية المسترشدة بالماركسية اللينينية – قد لعب دوراً إيجابياً في دفع التحويلات الاشتراكية في بلادنا نحو الانتصار وفي تمهيد السبيل لقيام التنظيم الاشتراكي للعمل ، وهو يتلاءم مع القاعدة الاقتصادية الاشتراكية ، أي علاقات الإنتاج الاشتراكية. ولكن بقاء الأيديولوجية البرجوازية في بلادنا ، ووجود بعض الأساليب البيروقراطية في أجهزة الدولة ، وبعض النواقص في حلقات من لوائحها ، جميعها في تناقض مع القاعدة الاقتصادية الاشتراكية. فعلينا أن نستمر في حل التناقضات المذكورة أعلاه على ضوء الظروف المحددة. وستظهر طبعاً مسائل جديدة بعد حل هذه التناقضات. وحين تظهر تناقضات جديدة يقتضي الأمر حلها هي أيضاً. فمن ذلك مثلاً أن التناقضات بين إنتاج المجتمع وحاجياته ، التي ستبقى كحقيقة موضوعية خلال مدة طويلة من الزمن ، ينبغي تسويتها باستمرار عن طريق برامج الدولة. إننا نرسم كل سنة في بلادنا مخططاً اقتصادياً ، لتحديد نسبة ملائمة بين التراكم والاستهلاك ، بغية الوصول إلى توازن بين الإنتاج والحاجيات. والتوازن يعني وحدة مؤقتة ونسبية بين طرفي التناقض. وبعد مرور سنة ، يختل هذا التوازن على وجه العموم نتيجة للصراع بين طرفي التناقض ، فتتغير هذه الوحدة ، ويتحول التوازن إلى عدم توازن ، والوحدة إلى عدم وحدة ، وعندئذ يتحتم علينا أن نعود إلى إيجاد توازن جديد ووحدة جديدة للسنة الجديدة. وهنا تكمن مزية اقتصادنا المبرمج. والواقع أن هذا التوازن وهذه الوحدة يختلان جزئياً كل شهر أو كل ثلاثة أشهر ، الأمر الذي يقتضي تعديلاً جزئياً. وفي بعض الأحيان تبرز تناقضات ويختل التوازن بسبب أن ترتيباتنا الذاتية لا تتفق مع الواقع الموضوعي ، وهذا ما يطلق عليه ارتكاب الخطأ. إن التناقضات تبرز على الدوام ويجري حلها على الدوام ، هذا هو القانون الديالكتيكي لتطور الأشياء.

إن الوضع الراهن هو كما يلي: الصراع الطبقي العاصف الذي كانت الجماهير تقوم به على نطاق واسع في المراحل الثورية السابقة ، قد انتهى من حيث الأساس ، إلا أن الصراع الطبقي لم ينته بعد تماماً ؛ وأن الجماهير الشعبية الغفيرة ترحب بالنظام الجديد من جهة ، ولكنها من جهة أخرى لم تألفه تماماً ؛ وأن العاملين في الدوائر الحكومية لا تزال تنقصهم خبرة كافية مما يحتم عليهم أن يواصلوا الدراسة والبحث في بعض المسائل الخاصة بالسياسات المحددة. وهذا يعني أن نظامنا الاشتراكي لا يزال بحاجة إلى فترة يكتمل فيها بناؤه ويتم توطيده ، وإن جماهير الشعب بحاجة إلى وقت آخر لتعتاد هذا النظام الجديد ، كما أن العاملين في الدوائر الحكومية ما زالوا بحاجة إلى أن يمروا بمرحلة من التعلم واكتساب التجارب. وعلى هذا فإنه من الضروري للغاية أن نطرح في هذا الوقت بالذات مسألة رسم خط فاصل بين نوعي التناقضات – التناقضات بيننا وبين أعدائنا والتناقضات بين صفوف الشعب ، وكذلك مسألة المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب ، بغية توحيد أبناء جميع القوميات في بلادنا في سبيل خوض معركة جديدة – المعركة ضد الطبيعة – من أجل تنمية اقتصادنا وتطوير ثقافتنا ، وتمكين شعبنا كله من اجتياز المرحلة الانتقالية الحالية بشيء من اليسر ، وتوطين نظامنا الجديد وبناء دولتنا الجديدة.

2- مسألة استئصال العناصر المعادية للثورة

إن مسألة استئصال العناصر المعادية للثورة هي مسألة نضال يدخل في نطاق التناقضات بيننا وبين أعدائنا. إننا نجد بين أبناء الشعب أناساً لهم آراء مختلفة حول هذه المسألة. فهناك فئتان من الناس تختلف آراؤهم عن آرائنا. فالذين يحملون الأفكار اليمينية لا يميزون بيننا وبين أعدائنا ، فيعتبرون الأعداء جزءاً من الشعب ، وبهذا يضعون في عداد أصدقائهم من تعتبرهم الجماهير الغفيرة أعداء لها. أما الذين يحملون الأفكار "اليسارية" فإنهم يوسعون دائرة التناقضات بيننا وبين أعدائنا إلى حد أنهم ينظرون إلى بعض التناقضات القائمة بين صفوف الشعب وكأنها تناقضات بيننا وبين أعدائنا ، ويعتبرون بعض الناس عناصر معادية للثورة في حين أنهم في الواقع ليسوا كذلك. إن كلا الرأيين خاطئ لا يمكن الاعتماد عليه في معالجة مسألة استئصال العناصر المعادية للثورة معالجة سليمة ، ولا في تقدير نتائج عملنا في حقل استئصال هذه العناصر تقديراً صحيحاً.

ولكي نقدر تقديراً صحيحاً نتائج العمل في حقل استئصال العناصر المعادية للثورة في بلادنا ، يجدر بنا أن ننظر إلى الأثر الذي تركته أحداث هنغاريا في بلادنا. وبعد وقوع تلك الأحداث ظهر شيء من الاضطراب بين قسم من المثقفين في بلادنا ، ولكنه

لم يؤد إلى عواصف. فما هو تفسير هذا؟ ينبغي أن نقول أن أحد أسباب ذلك هو أننا توفقنا إلى حد بعيد في استئصال العناصر المعادية للثورة في بلادنا.

وطبيعي أن توطد دولتنا لم ينتج أولاً وقبل كل شيء عن استئصال العناصر المعادية للثورة ، بل عن وجود حزبنا الشيوعي وجيش التحرير والشعب الكادح ، الذين قد تصلبت أعوادهم في الكفاح الثوري الذي دام عشرات السنين. إن لحزبنا ولجيشنا جذوراً عميقة وسط الجماهير ، وهما قد انصقلا في لهيب الثورة الطويلة الأمد ، ولهما القدرة على القتال. إن جمهوريتنا الشعبية لم تكن وليدة الصدفة ، بل تطورت خطوة فخطوة على أساس مناطق القواعد الثورية. وأن بعض الشخصيات الديمقراطية قد تمرسوا كذلك في الكفاح بدرجات متفاوتة وشاركونا المحن والآلام. كما أن بعض المثقفين قد انصقلوا في الكفاح ضد الإمبريالية والقوى الرجعية ، وأن عدداً كبيراً منهم مر بعد التحرير بعملية الإصلاح الأيديولوجي التي كانت تهدف إلى تمكينهم من التمييز بيننا وبين أعدائنا بوضوح. وبالإضافة إلى ذلك ، يعود توطد دولتنا إلى كون تدابيرنا الاقتصادية صحيحة من حيث الأساس ؛ وإلى أن حياة الشعب مستقرة وتتحسن باطراد ؛ وإلى كون سياستنا حيال البرجوازية الوطنية والطبقات الأخرى هي سياسة صحيحة ؛ وإلى غير ذلك من الأسباب. بيد أن نجاحاتنا في حقل استئصال العناصر المعادية للثورة كانت بلا شك من الأسباب المهمة لتوطد دولتنا. ولجميع هذه الأسباب ، فإن طلابنا الجامعيين ، بالرغم من أنه لا يزال بينهم عدد كبير ليس من أبناء عائلات الكادحين ، إلا أنهم ، باستثناء عدد ضئيل ، وطنيون يساندون الاشتراكية ، ولم تحدث بينهم اضطرابات في أثناء أحداث هنغاريا. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالبرجوازية الوطنية ، ناهيك عن الجماهير الأساسية — العمال والفلاحين.

لقد استأصلنا بعد التحرير عدداً من العناصر المعادية للثورة. وحكم على بعضهم بالإعدام لارتكابهم جرائم خطيرة. كان هذا أمراً ضرورياً تماماً ومطلباً من مطالب الجماهير الغفيرة ، وقد نفذ هذا المطلب من أجل تحرير الجماهير الواسعة التي كانت مضطهدة طوال فترة مديدة من قبل العناصر المعادية للثورة ومختلف الطغاة المحليين ، أي من أجل تحرير القوى المنتجة. ولو لم نفعل ذلك لما استطاعت الجماهير الشعبية أن ترفع رؤوسها. وقد تغير الوضع تغيراً جذرياً منذ عام 1956. فقد تم القضاء على القوى الرئيسية للعناصر المعادية للثورة إذا اعتبرنا البلاد ككل. وقد تحولت مهمتنا الأساسية من تحرير القوى المنتجة إلى حماية وتنمية القوى المنتجة في ظل علاقات الإنتاج الجديدة. وثمة أناس لا يدركون أن سياستنا الحاضرة تتفق مع الوضع الحاضر وأن السياسة التي انتهجناها في الماضي كانت تتلاءم مع الوضع الذي كان قائماً آنذاك ، فيحاولون استخدام سياستنا الحاضرة كحجة للطعن في سياستنا التي اتخذت في الماضي ، ويحاولون إنكار المكاسب العظيمة التي أحرزت في الماضي في حقل استئصال العناصر المعادية للثورة. إن هذا عين الخطأ ، والجماهير الشعبية لن تسمح بذلك.

إن المكاسب هي الشيء الأساسي في عملنا لاستئصال العناصر المعادية للثورة ، إلا أن هناك أخطاء أيضاً. فقد حدثت في هذا العمل تجاوزات ، كما كانت هناك حالات أفلت فيها بعض المعادين للثورة من العقاب. إن سياستنا هي: "لابد من استئصال العناصر المعادية للثورة أينما وجدت ، ولابد من إصلاح الأخطاء حيثما اكتشفت. " وخطنا في عمل استئصال العناصر المعادية للثورة هو خط جماهيري. وطبيعي أنه في حالة إتباعنا الخط الجماهيري يمكن أيضاً أن تظهر عيوب في عملنا ، إلا أن هذه العيوب ستكون أقل وأنه من السهل بمكان إصلاح الأخطاء. إن الجماهير تكتسب الخبرات في مجال النضال. فإذا أصابت في العمل اكتسبت خبرة عن كيفية إنجاز الأعمال بصورة صحيحة. أما إذا أخطأت فستستخلص العبر من الأخطاء.

وبالنسبة إلى كل ما اكتشفناه من الأخطاء التي وقعت في عملية استئصال العناصر المعادية للثورة ، قد اتخذنا أو نتخذ التدابير من أجل إصلاحه. أما الأخطاء التي لم تكتشف بعد ، فإننا على استعداد لإصلاحها حالما يتم اكتشافها. ويجب أن تعلن قرارات البراءة ورد الاعتبار إلى من أخطئ في حقهم على نفس النطاق الذي حصل فيه الخطأ. وأقترح أن نقوم في هذه السنة أو السنة المقبلة بتحقيق في عمل استئصال العناصر المعادية للثورة من جميع الوجوه ، وذلك بغية استخلاص الخبرة وإعلاء كلمة الحق وتوجيه الضربات إلى الاتجاهات الخبيثة(3). فعلى النطاق الوطني العام ، ينبغي أن يجري هذا التحقيق تحت إشراف اللجنة الدائمة للمجلس الوطني لنواب الشعب واللجنة الدائمة للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني. أما على النطاق المحلي فينبغي أن يجري تحت إشراف اللجان الشعبية ولجان المؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني في المقاطعات والمدن. ولا يجوز لنا أثناء التحقيق أن نصب الماء البارد على جماهير الكوادر والعناصر النشطة ، بل يجب علينا أن نساعدهم. فمن الخطأ أن نصب عليهم

الماء البارد ونثبط عزيمتهم. ولكن إذا اكتشفت أخطاء فلابد من إصلاحها. وينبغي اتخاذ هذا الموقف من جانب جميع أجهزة الأمن العام ، ودوائر النيابة العامة ، والهيئات القضائية ، والسجون ، والأجهزة المشرفة على إصلاح أيديولوجية المجرمين بواسطة العمل الجسماني. إننا لنرجو أن يشارك في هذا التحقيق جميع أعضاء اللجنة الدائمة للمجلس الوطني لنواب الشعب وأعضاء المؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني ونواب الشعب إذا توفرت لديهم الإمكانية. إن هذا سيسهم في استكمال نظامنا القضائي وفي معالجة القضايا بشأن العناصر المعادية للثورة وغيرها من العناصر المجرمة معالجة صحيحة.

ويمكن أن نصف الوضع الراهن فيما يتعلق بالعناصر المعادية للثورة بالعبارة الآتية: لا يزال هناك معادون للثورة ، إلا أنهم ليسوا بكثيرين. وينبغي الاعتراف قبل كل شيء بأنه لا يزال هناك معادون للثورة. وثمة من يقولون أن هؤلاء قد انقرضوا ، وأن السلام والاطمئنان يسودان كل مكان ، وبإمكاننا أن نسوى وسائدنا لننام ملء جفوننا. إن هذا لا يتفق مع الواقع. ففي الحقيقة أنه لا يزال هناك معادون للثورة (طبعاً ليس في كل مكان ولا في كل هيئة) مما يحتم علينا الاستمرار في مكافحتهم. ويجب أن ندرك أن العناصر المعادية للثورة ، التي لم تستأصل بعد والتي تختفي عن أعين الناس ، لم يصبها اليأس ، بل من المؤكد أنها ستنتهز كل فرصة مؤاتية لإثارة الاضطرابات. وأن الإمبرياليين الأمريكيين وزمرة تشيانغ كاي شيك يواصلون إرسال جواسيسهم إلى أراضينا للقيام بأعمال تخريبية. وبعد استئصال العناصر المعادية للثورة ، التي كانت موجودة من قبل ، قد تظهر من جديد عناصر أخرى معادية للثورة. فإذا تخلينا عن اليقظة فسوف نقع ضحية للخدعة ونتكبد خسائر جسيمة. ولذا يجب أن نقضي على العناصر المعادية للثورة بحزم حيثما أثارت الاضطرابات. ولكن إذا نظرنا إلى البلاد بمجموعها وجدنا بالفعل أن العناصر المعادية للثورة لم تعد كبيرة العدد. فمن الخطأ أيضاً أن يقال أن عدد العناصر المعادية للثورة لا يزال كبيراً على نطاق البلاد بأسرها. وقبول مثل هذا الرأي سينتهي بنا أيضاً إلى التشويش.

3- مسألة تعميم التعاونيات الزراعية

إن تعداد سكان الريف في بلادنا يتجاوز خمسمائة مليون نسمة ، لذلك فإن وضع الفلاحين له آثار بالغة الأهمية في تطور اقتصادنا وتوطد سلطتنا السياسية. وفي رأيي أن الوضع جيد من حيث الأساس. لقد تم تعميم التعاونيات الزراعية ، الأمر الذي أدى إلى حل التناقض الكبير بين التصنيع الاشتراكي والاقتصاد الزراعي الفردي في بلادنا. ونظراً لأن التعاونيات الزراعية تم تعميمها سريعاً فقد أخذ بعض الناس يقلقون ويخافون من أن ذلك سيؤدي إلى مشاكل. حدثت بالفعل بعض المشاكل ولكنها — من حسن الحظ — ليست خطيرة ، إذ أن حركة التعاونيات الزراعية سليمة على وجه العموم. فالفلاحون منصرفون إلى الإنتاج بحماسة بالغة ، وقد ازداد إنتاج الحبوب في البلاد كلها في العام الماضي رغم أن كوارث الفيضانات والجفاف والعواصف فيه كانت أشد خطورة منها في أي عام من الأعوام القليلة الماضية. هناك بعض الناس يثيرون زوبعة صغيرة إذ يقولون أن التعاون الزراعي لا يجدي ولا يحمل مزية. فهل توجد للتعاون الزراعي من مزايا ؟ إن الوثائق التي وزعت في جلسة اليوم تتضمن معلومات عن تعاونية وانغ قوه فان[4] في محافظة تسونخوا الواقعة في مقاطعة خبى ، وأقترح عليكم جميعاً أن تتطلعوا عليها. إن هذه التعاونية تقع في منطقة جبلية عرفت بالفقر المدقع في الماضي ، وكانت تعيش منذ التحرير على معونة الحكومة الشعبية من الحبوب. ولما أنشئت هذه التعاونية عام 1953 أطلق الناس عليها اسم "تعاونية الفقراء المعدمين" ، ولكن الحالة فيها قد أصبحت تتحسن سنة بعد أخرى خلال أربع سنوات من النضال الشاق ، فحصلت الأغلبية الساحقة من أعضائها على كميات من الحبوب تفيض عن حاجتها. إن ما تتمكن تعاونية وانغ قوه فان من تحقيقه يجب أن تتمكن التعاونيات الأخرى أيضاً من تحقيقه في ظروف عادية خلال نفس المدة أو مدة أطول بقليل. وهذا يدل على أن المزاعم القائلة بعدم صلاحية التعاون الزراعي ليس لها أساس من الصحة.

ويتضح من ذلك أن التعاونيات الزراعية لا يمكن إنشاؤها إلا عبر نضال شاق. إن كل شيء ناشئ لا بد أن يتغلب أثناء نموه على مشقات وتعرجات. ومن الأوهام البحتة أن يعتقد المرء أن قضية الاشتراكية يمكن أن تسير في يسر وسهولة وأن تنتصر دون أن تمر بمشقات أو تعرجات ودون أن تبذل فيها الجهود القصوى.

فمن هم الذين يؤيدون التعاونيات بحماس ؟ إنهم الأكثرية الساحقة من الفلاحين الفقراء ومن الفئة الدنيا من الفلاحين المتوسطين ، الذين يشكلون أكثر من 70 بالمائة من سكان الريف ، أما الآخرون فمعظمهم يعلقون الآمال على التعاونيات أيضاً. أما

الذين لم يرضوا عنها فعلاً فإنهم لا يشكلون سوى أقلية ضئيلة. إن كثيراً من الناس لم يقوموا بتحليل هذه الحالة ، ولم ينظروا من جميع الوجوه في نجاحات التعاونيات وفي نقائصها ، ولا في الأسباب التي نشأت عنها هذه النقائص ، فاعتبروا الشيء الجزئي الوحيد الجانب شيئاً كلياً ، وبالتالي أثيرت بين بعض الناس زوبعة صغيرة زاعمة بأنه لا مزية للتعاونيات.

ما الوقت الذي سيستغرقه تدعيم التعاونيات ، ومتى ستنتهي المزاعم القائلة بأنها لا تحمل مزية ؟ على ضوء تجارب نمو الكثير من التعاونيات يتطلب ذلك زهاء خمس سنوات أو أكثر من ذلك بقليل. أما الآن فإن عمر معظم التعاونيات في البلاد لا يزيد على سنة إلا بقليل ، فليس من المنطقي أن يرجو المرء أن يسير كل شيء في التعاونيات على ما يرام. وفي رأيي أنه إذا تم إنشاء التعاونيات في فترة مشروع السنوات الخمس الأول ، وتوطيدها في فترة مشروع السنوات الخمس الثاني ، فإن ذلك ليعد أمراً جيداً جداً.

إن التعاونيات تمر الآن بمرحلة التدعيم التدريجي. وما تزال فيها تناقضات تتطلب الحل ، مثل التناقضات القائمة بين الدولة والتعاونيات أو في داخل التعاونيات وفيما بينها.

يجب أن نوجه انتباهنا دائماً إلى معالجة التناقضات المذكورة أعلاه من حيث الإنتاج والتوزيع ، ففي ناحية الإنتاج ، يجب أن يخضع اقتصاد التعاونية لتخطيط الدولة الموحد للاقتصاد وأن يحتفظ في الوقت نفسه بقدر معين من المرونة والاستقلال على ألا يخالف مشروع الدولة الموحد وسياساتها وقوانينها ، هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فينبغي لكل عائلة تنضم إلى التعاونية أن تتقيد بالخطة العامة للتعاونية أو لفرقة الإنتاج ، وإلى جانب ذلك يجوز للعائلة أن تضع خطة ملائمة لزراعة قطعة من الأرض المخصصة لها ولأعمال أخرى مما تديره العائلات إدارة فردية. أما في ناحية التوزيع فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار مصالح الدولة والمصالح الجماعية والمصالح الشخصية في آن واحد. فمن الضروري أن نعالج بصورة صحيحة العلاقات بين الضرائب التي تجمعها الدولة ومدخرات التعاونيات ومداخيل الفلاحين الشخصية ، وأن نسهر دائماً على معالجة التناقضات في هذا الميدان. إن المدخرات ضرورية بالنسبة إلى كل من الدولة والتعاونية ، ولكن لا يجوز أن تزيد هذه المدخرات أكثر من اللازم. وعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا كي يتسنى للفلاحين في سنوات الموسم العادي أن يزيدوا مداخيلهم سنة بعد أخرى على أساس ازدياد الإنتاج.

يقول كثيرون أن الفلاحين يعيشون عيشة قاسية. فهل هذا الرأي صحيح ؟ أجل ، إنه صحيح من جانب واحد ، لأن بلادنا تعيش في فقر مدقع حيث لم يكن مستوى المعيشة منخفضاً لدى الفلاحين وحسب ، بل لدى العمال والمثقفين أيضاً ، ويعود ذلك إلى أن بلادنا قد عانت الاضطهاد والاستغلال من جانب الإمبرياليين وعملائهم طيلة أكثر من مائة سنة. ولا يمكن أن نرفع مستوى معيشة الشعب كله خطوة فخطوة إلا بالجهود الشاقة التي سوف نبذلها طوال مدة عشرات من السنين. فكلمة "قاسية" بهذا المعنى هي صحيحة. أما من جهة أخرى فإن هذا الرأي خاطئ إذا كان يقصد به أن معيشة الفلاحين لم تتحسن خلال السنوات السبع بعد التحرير ، بينما تحسنت معيشة العمال وحدهم. الواقع أن أحوال معيشة العمال والفلاحين قد تحسنت بقدر ما باستثناء عدد ضئيل جداً. فقد تخلص الفلاحون منذ التحرير من استغلال ملاك الأراضي وأخذ إنتاجهم ينمو سنوياً. لنأخذ الحبوب على سبيل المثال: في عام 1949 لم يزد محصول الحبوب في كل البلاد على 210 مليار جين (الجين يساوي نصف كيلو غرام — المعرب) إلا بقليل. أما في عام 1956 ، فقد وصل إلى أكثر من 360مليار جين ، أي أن الزيادة كانت حوالي 150 مليار جين. إن الضريبة الزراعية التي تجمعها الدولة سنوياً لا تعتبر باهظة إذ لم تتجاوز 30 مليار جين إلا بقليل. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مجموع الحبوب التي تشترى سنوياً من الفلاحين بالسعر العادي تزيد فقط عن 50 مليار جين بقليل ، ومجموع الحبوب التي تم الحصول عليها سنوياً في هذين البابين تبلغ 80 مليار جين وأكثر ومع ذلك ، فإن أكثر من نصف كمية الحبوب هذه يباع في القرى والبلديات القريبة منها. وعلى ذلك فلا يستطيع أحد أن يدعي بأن معيشة الفلاحين لم تتحسن. ونأمل أن نتمكن ، خلال مدى بضع سنوات ، من جعل كمية الحبوب التي تجمع سنوياً من الضرائب والمشتريات ، تستقر عموماً على مستوى واحد وهو ما يعادل 80 مليار جين وأكثر ، لكي تتطور الزراعة وتتوطد التعاونيات وتتمكن عائلات الفلاحين في القرى ، التي لا تزال تعوزها اليوم الحبوب — وهذه العائلات قليلة العدد — من أن تسد هذا العوز ، ويصبح لدى جميع هذه العائلات ، باستثناء بعض العائلات التي تزرع المحاصيل النقدية ، فائض من الحبوب أو على الأقل كميات كافية منها لسد حاجاتها ، وعند ذلك سوف لا يبقى في القرى فلاحون فقراء ، بل يبلغ جميع الفلاحين مستوى معيشة الفلاحين المتوسطين أو يتجاوزونه. وليس من الصحيح أن يقارن المرء ببساطة بين متوسط

دخل الفلاح السنوي ومتوسط دخل العامل السنوي ويقول بعد ذلك: هذا قليل وذاك كثير. إن إنتاجية عمل العمال هي أرفع بكثير من إنتاجية عمل الفلاحين ، في حين أن الفلاحين ينفقون على معيشتهم أقل بكثير مما ينفق عمال المدن ، ولذلك لا يمكن القول أن العمال يتمتعون بعناية خاصة من جانب الدولة. إن أجر عدد صغير من العمال وبعض العاملين في دوائر الدولة هو أعلى بقليل من الأجر المناسب ، ولذا يحق للفلاحين ألا يرضوا بذلك ، إذن من اللازم أن ندخل تعديلات مناسبة على أجورهم حسب الظروف المحددة.

4- مسألة رجال الصناعة والتجارة

في حقل إصلاح النظام الاجتماعي في بلادنا ، وإلى جانب تعميم التعاونيات في الزراعة والصناعة اليدوية ، قد أنجز أيضاً في عام 1956 تحويل المؤسسات الصناعية والتجارية الخاصة إلى مؤسسات مشتركة تملكها الدولة والأفراد. إن تحقيق هذا التحويل بهذه السرعة وبهذا النجاح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعالجتنا للتناقض بين الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية ، باعتباره تناقضاً بين صفوف الشعب. وهل حل هذا التناقض الطبقي تماماً ؟ كلا ، إنه لم يحل حلاً تاماً بعد. فإن حل هذا التناقض لا يزال يتطلب وقتاً طويلاً بيد أن هناك من يقولون الآن: أن الرأسماليين قد أعيد تكوينهم أيديولوجياً وأصبحوا لا يختلفون عن العمال كثيراً ، لذلك ليس من الضروري استمرارهم في إعادة تكوينهم أيديولوجياً. وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فقالوا أن الرأسماليين أفضل من العمال. وهناك أيضاً من يقولون: إذا كانت إعادة التكوين ضرورية ، فلماذا لا تقوم الطبقة العاملة بإعادة تكوين نفسها ؟ فهل هذه الأقوال صحيحة ؟ بالتأكيد ليست صحيحة.

في مجرى بناء المجتمع الاشتراكي لابد لكل إنسان من إعادة تكوين نفسه أيديولوجياً ، سواء أكان من المستغلين أم من الشعب الكادح. فمن ذا الذي قال أن الطبقة العاملة لا تحتاج إلى إعادة تكوين نفسها ؟ طبعاً ، إن إعادة تكوين المستغلين تختلف ، من حيث طبيعتها ، عن إعادة تكوين نفسها في الوقت الذي تغير فيه المجتمع كله في الصراع الطبقي وفي النضال ضد الطبيعة. وعلى الطبقة العاملة أن تتعلم على الدوام في أثناء عملها ، وأن تتغلب على نقائصها تدريجياً ، وألا تتوقف عن ذلك أبداً. ولنذكر أنفسنا نحن الحاضرين هنا على سبيل المثال ، فإن كثيراً منا يحققون بعض التقدم في كل سنة ، وبعبارة أخرى إنهم يعملون كل سنة على إعادة تكوين أنفسهم. وفيما يتعلق بي فقد كنت في الماضي أحمل أفكاراً مختلفة غير ماركسية ، ولم أعتنق الماركسية إلا بعد ذلك. لقد درست الماركسية قليلاً في الكتب وخطوت الخطوات الأولى في إعادة تكوين نفسي أيديولوجياً ، بيد أن إعادة التكوين هذه إنما تمت بصورة رئيسية في غمرة الصراع الطبقي الطويل الأمد. ومع ذلك يجب علي أن أواصل الدراسة في المستقبل ، وبذلك فقط أتمكن من تحقيق بعض التقدم ، وإلا فإني سأتخلف. فهل يمكن أن يكون الرأسماليون جيدين إلى الحد الذي لم يعودوا فيه بحاجة إلى إصلاح الأيديولوجية ؟

وهناك من يقولون أن البرجوازية الصينية لم تعد تحمل طابعها المزدوج بل تحمل طابعاً واحداً فقط. فهل يتفق هذا مع الواقع ؟ كلا ، لا يتفق مع الواقع. فالبرجوازيون قد أصبحوا موظفين إداريين في المؤسسات المشتركة وهم في طريق التحول من مستغلين إلى كادحين يكتسبون رزقهم بعملهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ما برح هؤلاء البرجوازيون يتقاضون فوائد محددة النسبة في المؤسسات المشتركة ، وهذا يعني أنهم لم يقلعوا بعد عن طبيعتهم طبيعة المستغلين. أما في ميدان الأفكار والعواطف والعادات فإنه ما يزال هناك فارق غير صغير بينهم وبين الطبقة العاملة. فكيف يمكن القول بأنهم لم يعودوا يحملون طابعهم المزدوج ؟ أنه لا يزال من الضروري أن يواصلوا إصلاح أيديولوجيتهم لفترة طويلة ، حتى ولو توقف تقاضيهم للفوائد المحددة النسبة وسحب عنهم لقب البرجوازية. وإذا ما اعتبر أن البرجوازية لم تعد تحمل طابعها المزدوج فلن تبقى للرأسماليين مهمة إصلاح الأيديولوجية والدراسة.

ويجب القول بأن هذه الآراء المذكورة لا تتفق مع الوضع الواقعي لرجال الصناعة والتجارة ، وكذلك لا تتفق مع رغبات أكثريتهم. ففي السنوات القليلة المنصرمة ، كان أكثرية رجال الصناعة والتجارة يرغبون في الدراسة وقد حققوا تقدماً ملحوظاً. وأن إصلاح أيديولوجية رجال الصناعة والتجارة تماماً لا يمكن تحقيقه إلا عبر العمل ، فعليهم أن يقوموا بالعمل الجسماني في

المؤسسات مع العمال والموظفين ، وأن يتخذوا من المؤسسات قاعدة لإصلاح أيديولوجيتهم. ولكن من المهم كذلك أن يغيروا بعض وجهات نظرهم القديمة بواسطة الدراسة. وينبغي أن تكون هذه الدراسة قائمة على أساس اختياري. ولما عاد كثير من رجال الصناعة والتجارة إلى أماكن عملهم بعد أن اشتركوا في فصول دراسية لعشرات الأيام ، قد توسع محيط اللغة المشتركة بينهم وبين جماهير العمال وممثلي الحكومة ، وعليه ، ظهرت إمكانيات أفضل للعمل سوياً. وهم يدركون بتجربتهم الشخصية أن متابعة الدراسة ومواصلة إصلاح الأيديولوجية ستعود عليهم بالفائدة. إن الآراء التي أشرت إليها آنفاً والتي تدعى بعدم ضرورة الدراسة وإصلاح الأيديولوجية ، لا تعكس آراء أكثرية رجال الصناعة والتجارة ، إنما تعكس آراء عدد قليل منهم.

5- مسألة المثقفين

إن التناقضات بين صفوف شعبنا لها انعكاس أيضاً بين المثقفين. إن عدة ملايين من المثقفين الذين كانوا في خدمة المجتمع القديم ، قد تحولوا الآن إلى خدمة المجتمع الجديد. فهنا تبرز مسألة ألا وهي كيف يمكن لهؤلاء المثقفين أن يتجاوبوا مع متطلبات المجتمع الجديد ، وكيف يمكن أن نساعدهم حتى يتجاوبوا معها. وهذا أيضاً يعتبر تناقضاً بين صفوف الشعب.

إن أكثرية المثقفين في بلادنا قد حققوا في السنوات السبع المنصرمة تقدماً ملحوظاً ، وهم يفضلون النظام الاشتراكي. فيدرس كثير منهم الماركسية بجد واجتهاد ، وأصبح قسم منهم شيوعيين. وبالرغم من أن أفراد هذا القسم الأخير يشكلون أقلية في الوقت الحاضر ، إلا أن عددهم يتزايد باطراد. من المؤكد أن هناك عدداً من المثقفين ما زالوا حتى الآن يشكون في الاشتراكية أو لا يتقبلونها ، ولكنهم لا يشكلون إلا أقلية ضئيلة.

إن القضية الضخمة الشاقة – قضية بناء الاشتراكية في بلادنا ، تتطلب خدمة أكبر عدد ممكن من المثقفين. فعلينا أن نثق بجميع المثقفين الذين يرغبون مخلصين في خدمة قضية الاشتراكية ، وأن نحسن علاقاتنا معهم تحسيناً جذرياً ، وأن نساعدهم على حل جميع المشاكل التي تتطلب الحل ، حتى نتيح لهم فرصة كافية ليطلقوا مواهبهم. وهناك كثير من رفاقنا لا يحسنون الاتحاد مع المثقفين ، وهم يعاملونهم بخشونة ولا يحترمون عملهم ، ويتدخلون في بعض الأعمال العلمية والثقافية التي لا ينبغي لهم التدخل فيها. فينبغي لنا أن نتخلص من جميع هذه النقائص.

وبالرغم من أن جماهير المثقفين قد حققوا تقدماً ، إلا أنه لا ينبغي أن يصيبهم الغرور ، بل يجب عليهم أن يواصلوا إصلاح أيديولوجيتهم ويتخلصوا تدريجياً من النظرة البرجوازية إلى العالم ويقيموا النظرة الشيوعية البروليتارية إلى العالم وذلك من أجل أن يتم انسجامهم اليوم مع متطلبات المجتمع الجديد وأن يتحدوا مع العمال والفلاحين اتحاداً تاماً. إن تبدل النظرة إلى العالم هو شيء أساسي ، وحتى الآن لا يمكن القول بأن معظم المثقفين قد حققوا هذا التبدل. إننا نأمل أن يواظب المثقفون في بلادنا على السير قدماً ، أي أن يقيموا تدريجياً ، خلال عملهم ودراستهم ، النظرة الشيوعية إلى العالم ، ويستوعبوا الماركسية اللينينية خطوة فخطوة ، وأن يندمجوا تدريجياً مع العمال والفلاحين ، وألا يتوقفوا في منتصف الطريق ناهيك عن التقهقر إلى الوراء ، لأن التقهقر سيؤدي بهم إلى طريق مسدود. ونظراً لأنه قد طرأت تغيرات على نظام بلادنا الاجتماعي وأن القاعدة الاقتصادية للأيديولوجية البرجوازية قد أزيلت بصورة أساسية ، فأصبح من الضروري بل من الممكن أن تتبدل النظرة إلى العالم عند عدد كبير من المثقفين. إلا أن تبديل النظرة إلى العالم بشكل نهائي يتطلب وقتاً طويلاً جداً ، ولذلك فعلينا أن نعمل بصبر في هذا المجال ونتجنب التسرع. والواقع أنه سيكون هناك بلا ريب أناس ترفض أيديولوجيتهم بعناد الماركسية اللينينية وترفض الشيوعية كذلك ، فلا ينبغي أن نطلب منهم أكثر مما يستطيعون ، بل يجب أن نتيح لهم الفرص للقيام بالأعمال الملائمة ما داموا يخضعون لمتطلبات الدولة ويقومون بأعمال لا تخالف القانون.

إن العمل الفكري والسياسي قد ضعف في الآونة الأخيرة بين المثقفين والطلاب الشبان ، فظهرت بينهم بعض الانحرافات. فالسياسة ، ومستقبل الوطن ، والمثل العليا للبشرية ، أصبحت في نظر بعض الناس كأنها أشياء لا تستحق الاهتمام. ويبدو لهؤلاء أن الماركسية كانت رائجة في زمن ما ، أما الآن فلم تعد تساير العصر تماماً. فإزاء هذه الحال ، يجب علينا الآن تقوية العمل الفكري والسياسي. ويجب على المثقفين والطلاب الشبان على حد سواء أن يتعلموا بجد واجتهاد. وإلى جانب دراسة مواد اختصاصهم ،

ينبغي لهم إحراز التقدم فكرياً وسياسياً ، ولهذا ينبغي لهم أن يدرسوا الماركسية ، وأن يدرسوا الأحداث الجارية والمسائل السياسية. إن الإنسان إذا لم يتسلح بوجهات نظر سياسية صحيحة أصبح كأنه جسد بلا روح. إن الإصلاح الأيديولوجي الذي جرى في الماضي كان ضرورياً وقد حقق نتائج إيجابية ، ولكن أساليبه اتسمت بشيء من الخشونة فآذت مشاعر بعض الناس ، وهذا لم يكن حسناً. ويجب أن نتحاشى هذه النواقص في المستقبل. فيجب على جميع الدوائر والمنظمات أن تضطلع بمسئولية العمل الفكري والسياسي ، ينطبق ذلك على الحزب الشيوعي وعلى عصبة الشبيبة وعلى الدوائر الحكومية المختصة ، وعلى الأخص ينطبق على المديرين والمعلمين في المدارس والجامعات. ينبغي أن تمكن سياستنا التعليمية كل من يتلقى تعليماً من أن ينمو خلقياً وثقافياً وجسمانياً حتى يصبح من الكادحين المثقفين ذوي الوعي الاشتراكي. يجب علينا أن ندعو إلى بناء بلادنا بالعمل المجد والاقتصاد في النفقات. ويجب علينا أن نفهم الشباب جميعاً أن بلادنا لا تزال فقيرة جداً ، وأنه يستحيل تغيير هذا الوضع بشكل جذري في أمد قصير ، وأننا ، بالاعتماد التام على الجهود الموحدة التي يبذلها الشباب وكافة أبناء الشعب خلال عشرات من السنين ، نستطيع أن نبني بلادنا بسواعدنا ونجعل منها دولة غنية قوية. إن قيام النظام الاشتراكي قد فتح لنا الطريق الذي يؤدي إلى عالم مثالي ، ولكن بناء هذا العالم المثالي يتوقف على عملنا الدائب النشيط. إن بعض الشبيبة يظنون أنه ينبغي أن يكون كل شيء على ما يرام حالما يتم تأسيس المجتمع الاشتراكي ، وأنه بوسعهم التمتع بحياة سعيدة جاهزة دون أي جهد. إن هذا الرأي لا يطابق الواقع.

6- مسألة الأقليات القومية

يزيد تعداد الأقليات القومية في بلادنا على 30مليون نسمة. وبالرغم من كون هؤلاء لا يشكلون سوى 6 بالمائة من مجموع سكان البلاد ، إلا أن المناطق التي يقطنونها واسعة بحيث تشمل ما بين 50و 60بالمائة من مجموع مساحة البلاد. ولذلك فلا بد من توثيق العلاقات بين قومية الهان والأقليات القومية. والمفتاح لحل هذه القضية هو التغلب على شوفينية قومية الهان الكبرى. وفي الوقت ذاته ينبغي التغلب على نزعة التعصب القومي المحلي بين الأقليات القومية التي توجد عندها هذه النزعة. فإن كلاً من شوفينية قومية الهان الكبرى ونزعة التعصب القومي المحلي ليس في صالح وحدة أبناء جميع القوميات ، وهذا تناقض بين صفوف الشعب يجب التغلب عليه. لقد قمنا ببعض الأعمال في هذا الميدان ، فتحسنت كثيراً العلاقات بين القوميات المختلفة في معظم المناطق التي تقطنها الأقليات القومية إذا ما قارناها بما كانت عليه في الماضي. ولكن لا تزال هناك مشاكل تنتظر الحل ، ففي بعض المناطق مازال كل من شوفينية قومية الهان الكبرى والتعصب القومي المحلي موجوداً إلى درجة خطيرة ، وهذا الأمر يجب أن نعيره كامل انتباهنا. وبفضل جهود أبناء جميع القوميات في السنوات القليلة المنصرمة ، تم من حيث الأساس انجاز الإصلاحات الديمقراطية والتحويلات الاشتراكية في أغلب مناطق الأقليات القومية ببلادنا. بيد أنه لم تجر الإصلاحات الديمقراطية في التبت حتى الآن نظراً لأن الظروف هناك لم تنضج بعد. وبمقتضى الاتفاق ذي ال 17 بنداً ، الذي عقد بين الحكومة المركزية وحكومة التبت المحلية ، يجب أن تجري الإصلاحات في النظام الاجتماعي ، ولكن موعد إجرائها لا يمكن أن يحدد إلا ريثما ترى أكثرية الجماهير الشعبية في التبت وزعماؤها أن الإصلاحات يمكن إجراؤها ، ولا يجوز التسرع في هذه القضية. لقد اتخذ الآن قرار يقضي بعدم إجراء الإصلاحات هناك خلال مشروع السنوات الخمس الثاني. أما مسألة ما إذا كانت الإصلاحات سوف تجري خلال مشروع السنوات الخمس الثالث ، فلا يمكن أن نحددها إلا على ضوء الظروف الواقعية في ذلك الحين[5].

7- التخطيط الشامل والترتيب الصحيح

نقصد بالتخطيط الشامل ذلك التخطيط الذي يراعي مصالح ال 600 مليون من أبناء شعبنا. يجب عند وضع المشاريع ومعالجة المسائل والتفكير فيها ، أن ننطلق من حقيقة أن بلادنا تضم 600مليون نسمة ، وعلينا ألا ننسى هذه الحقيقة أبداً. ولماذا نطرح هذه المسألة ؟ أهناك أناس لا يعرفون حتى الآن أن تعداد سكان بلادنا 600مليون نسمة ؟ كلا ، إن جميع الناس يعرفون ذلك ، ولكن بعض الناس ينسون كل ذلك عند العمل فيخيل إليهم أنه كلما قل عدد الناس وضاق محيط العمل كان ذلك أفضل.

إن أولئك الذين يحملون في رؤوسهم عقلية "الحلقة الضيقة" هذه إنما يعارضون الفكرة الداعية إلى استخدام جميع العوامل الإيجابية ، والاتحاد مع جميع الناس الذين يمكن الاتحاد معهم ، وتحويل العوامل السلبية بقدر الإمكان إلى عوامل إيجابية حتى تخدم القضية العظمى ، قضية بناء المجتمع الاشتراكي. إني آمل أن يوسع هؤلاء أفقهم وأن يعترفوا اعترافاً حقيقياً بأن عدد سكان بلادنا 600مليون نسمة ، وأن هذه حقيقة موضوعية ، وأنه رصيد لنا. إن كثرة السكان في بلادنا أمر جيد ، ولكنه بالطبع ينطوي على صعوبات. إن قضية البناء عندنا تتطور تطوراً متصاعداً في جميع الميادين وتسجل نجاحات عظيمة ، إلا انه في المرحلة الانتقالية الحالية – مرحلة التحول الاجتماعي الكبير ما زال يواجهنا العديد من الصعوبات. إن وجود التقدم والصعوبات معاً يشكل تناقضاً. وكل تناقض من التناقضات يجب إيجاد حل له ، بل يمكن ذلك تماماً. إن مبدأنا هو التخطيط الشامل والترتيب الصحيح. فعند معالجة مختلف المسائل ، كمسألة الحبوب ، ومسألة الكوارث الطبيعية ، ومسألة التخديم ، ومسألة التعليم ، ومسألة المثقفين ، ومسألة الجبهة المتحدة لجميع القوى الوطنية ، ومسألة الأقليات القومية على حد سواء ، ينبغي الانطلاق من وجهة نظر التخطيط الشامل الذي يضع في الاعتبار مصالح الشعب بأسره ، ووضع ترتيبات صحيحة حسب ما تسمح به الإمكانيات الواقعية في زمانها ومكانها وبعد التشاور مع جميع الأوساط المعنية. فلا يجوز لنا على الإطلاق أن نشتكي من كثرة الناس وتخلفهم وتعقد الأمور وصعوبة حلها فنتغاضى عنها ونستريح منها. هل الذي قلته الآن يعني أن الحكومة ستضطلع وحدها بكل شيء حيال مشاكل جميع الناس وستضطلع بتحقيق جميع الأعمال ؟ كلا بالطبع ، فإن مشاكل كثير من الناس وعدداً من الأمور يمكن تركها إلى المنظمات الاجتماعية أو إلى الجماهير مباشرة للعمل على حلها ، إذ أنها جميعاً تستطيع إيجاد كثير من الحلول المجدية لها. وهذا أيضاً يدخل في مبدأ التخطيط الشامل والترتيب الصحيح ، فينبغي لنا أن نرشد المنظمات الاجتماعية والجماهير في جميع مناطق البلاد أن يفعلوا هكذا.

8- حول "دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة فكرية تتبارى" و "التعايش الطويل الأمد والرقابة المتبادلة"

كيف صيغت الشعارات: "دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة فكرية تتبارى" و "التعايش الطويل الأمد والرقابة المتبادلة"؟ لقد صيغت على أساس الظروف المحددة في الصين ، وعلى أساس الاعتراف بأن تناقضات مختلفة لا تزال موجودة في المجتمع الاشتراكي ، وعلى أساس حاجة الدولة الملحة التي تحتاج إلى تطوير اقتصادها وثقافتها بسرعة فائقة. فالسياسة القائلة "دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة فكرية تتبارى" إنما هي سياسة رامية إلى دفع تقدم الفن والعلم وإلى ازدهار الثقافة الاشتراكية في بلادنا. ففي ميدان الفن يمكن أن تنمو ، بحرية ، أشكال وأساليب متنوعة ، وفي مجال العلم يمكن كذلك أن تتناظر ، بحرية ، مدارس مختلفة ، إذ أننا نعتبر أن الترويج قسراً لهذا الأسلوب أو المدرسة ، وتحريم ذلك الأسلوب أو تلك المدرسة ، بقوة السلطة الإدارية ، هو عمل يضر بتقدم الفن والعلم. إن مسألة الصواب والخطأ في الفن والعلم ينبغي أن تحل عن طريق نقاش حر بين أوساط الفنانين والعلماء وعن طريق ممارسة الفن والعلم ، ولا يجوز أن تحل بأساليب جافة.

وغالباً ما تلزم الشيء فترة من الزمن يختبر فيها للحكم على ما إذا كان صحيحاً أم خاطئاً. إن التاريخ يدل على أنه غالباً ما يكون الجديد والصحيح غير معترف به من قبل أكثرية الناس في بادئ الأمر ، فلا يستطيع هذا أن ينمو إلا في غمرة الصراع وبطرق ملتوية. وفي أغلب الأحيان لا يرى الناس كل ما هو صحيح وحسن كزهرة عاطرة أول الأمر ، بل بالعكس يعتبرونه كعشبة سامة. إن نظرية كوبرنيك عن المنظومة الشمسية ونظرية داروين عن النشوء والارتقاء كانتا تعتبران خاطئتين ، وقد صمدتا في صراع مرير. وقد شهد تاريخ بلادنا أيضاً أمثلة كثيرة كهذه. وإذا قارنا بين المجتمع القديم والمجتمع الاشتراكي ، لوجدنا أن ظروف نمو الأشياء الناشئة في المجتمع الاشتراكي تختلف اختلافاً جذرياً عما في المجتمع القديم ، وأنها باتت أفضل بكثير. بيد أن كبت القوى الناشئة ، وخنق الآراء المعقولة ما يزالان من الظواهر الكثيرة الحدوث. وحتى لو كان الكبت عن غير عمد بل حصل لمجرد العجز عن التمييز السليم فإن ذلك يعرقل أيضاً نمو الأشياء الناشئة. ولذلك يجب أن نواجه مسألة الصواب والخطأ في العلم والفن بحذر

وترو ، ويجب تشجيع النقاش الحر ، وعدم التسرع في إطلاق الاستنتاجات. إننا نعتبر أن اتخاذ هذا الموقف يمكن أن يساعد على تطوير العلم والفن بسهولة أكثر.

إن الماركسية هي أيضاً تطورت في غمرة الصراع. ففي بادئ الأمر كانت الماركسية تصطدم بهجمات من كل نوع ، وتعتبر كعشبة سامة. وهي ما تزال ، في الوقت الحاضر ، في أجزاء عديدة من العالم تتعرض للهجمات. وتعتبر كشعبة سامة. أما في البلدان الاشتراكية فإن الماركسية تتمتع بمنزلة تختلف عما في البلدان الأخرى. ولكن ما تزال حتى في البلدان الاشتراكية أفكار غير ماركسية ، وكذلك أفكار معادية للماركسية. وبالرغم من أن التحويل الاشتراكي في بلادنا ، فيما يتعلق بالملكية ، قد أنجز من حيث الأساس ، وأن الصراع الطبقي الجماهيري العنيف العاصف والواسع النطاق في المراحل الثورية الماضية قد انتهى الآن من حيث الأساس ، إلا أنه ما تزال هناك بقايا من طبقتي ملاك الأراضي والكومبرادوريين اللتين أطيح بهما ، وما تزال البرجوازية موجودة ، ولم تبتدئ إعادة تكوين البرجوازية الصغيرة أيديولوجياً إلا قبل وقت وجيز. إذن فالصراع الطبقي لم ينته بعد. إن الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، والصراع الطبقي بين مختلف القوى السياسية ، والصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية في الحقل الأيديولوجي ، كل هذا الصراع سوف يستمر لفترة طويلة ويجري في شكل متعرج وحتى أنه يصبح في بعض الأحيان صراعاً عنيفاً جداً. إن البروليتاريا تسعى لتحويل العالم وفقاً لنظرتها إلى العالم وهكذا تسعى البرجوازية أيضاً. فمسألة أي من الاشتراكية والرأسمالية ستنتصر على الأخرى في هذا الحقل ، لم تحل حلاً نهائياً بعد. والماركسيون لا يزالون ، كما كانوا من قبل ، أقلية سواء في مجموع السكان أو بين المثقفين. ولذلك فإنه ما زال لزاماً على الماركسية أن تنمو في غمرة الصراع. إن الماركسية لا تستطيع أن تنمو إلا في الصراع ، هكذا كان الأمر في الماضي وهو كذلك اليوم ، وسيكون مثل ذلك حتماً في المستقبل. إن ما هو صحيح ينمو دائماً في الصراع ضد ما هو خاطئ. إن الحق والخير والجمال موجود دائماً مقابل ما هو باطل وشر وقبيح ، وهو ينمو دائماً في غمرة الصراع ضد الباطل والشر والقبيح. فحين تنبذ الإنسانية بصورة عامة شيئاً خاطئاً وتقبل بصورة عامة حقيقة معينة ، فإن حقائق أخرى جديدة تناضل ، بدورها ، ضد الآراء الجديدة الخاطئة. إن هذا النضال لن يتوقف أبداً. إن ذلك قانون تطور الحقيقة ، وهو بالطبع أيضاً قانون تطور الماركسية.

إن حسم مسألة الصراع الأيديولوجي بين الاشتراكية والرأسمالية في بلادنا لا يزال يتطلب فترة طويلة جداً. والسبب في ذلك هو أن تأثير البرجوازية والمثقفين الذين انحدروا من المجتمع القديم سيظل في بلادنا لفترة طويلة ، وهو سيدوم ، بصفته أيديولوجية طبقية ، زمناً طويلاً أيضاً. فإذا لم ندرك هذا الوضع كما ينبغي أو لم ندركه بتاتاً فسوف نرتكب أفدح الأخطاء ونهمل شن الصراع اللازم في الحقل الأيديولوجي. إن الصراع الأيديولوجي يختلف عن سائر أشكال الصراع ، فلا يمكن أن تستعمل في هذا الصراع الأساليب القسرية الصارمة ، بل لابد من اللجوء إلى أساليب الإقناع اللينة. وتمتاز الاشتراكية الآن في الصراع الأيديولوجي بوضع متفوق. فقوة الحكم الأساسية هي في أيدي الشعب الكادح الذي تقوده البروليتاريا. والحزب الشيوعي يتمتع بقوة عظيمة ومنزلة رفيعة. ومع أنه توجد في عملنا نواقص وأخطاء ، فإن كل إنسان منصف يستطيع أن يرى أننا مخلصون للشعب ، وأننا مصممون وقادرون على العمل مع الشعب وإحراز النجاح في بناء وطننا ، وأننا قد أحرزنا حتى الآن نجاحات عظيمة وسنحرز نجاحات أعظم في المستقبل. إن للأكثرية الساحقة من العناصر البرجوازية والمثقفين المنحدرين من المجتمع القديم روحاً وطنية ، إنهم يرغبون في خدمة وطنهم الاشتراكي النامي نمواً زاخراً ، وهم يدركون أنهم لن يجدوا من يستندون إليه ولا يمكن أن يكون لهم مستقبل وضاء إذا انفصلوا عن القضية الاشتراكية وعن الشعب الكادح الذي يقوده الحزب الشيوعي.

يسألنا الناس: إن معظم الناس في بلادنا باتوا يقرون بالماركسية كأفكار مرشدة ، فهل يمكن انتقاد الماركسية ؟ أجل ، هذا ممكن بالتأكيد. فالماركسية حقيقة علمية ، وهي لا تخشى الانتقاد. فلو كانت الماركسية تخشى الانتقاد ، أو لو كان يمكن القضاء عليها بالانتقاد ، لما كانت صالحة لشيء. ألا ترى في الواقع أن المثاليين ينتقدون الماركسية كل يوم بجميع الوسائل الممكنة ؟ ألا ترى أن الناس الذين يتمسكون بأفكار البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ولا يريدون تبديلها ، ينتقدون الماركسية بجميع ما أوتوا من وسائل أيضاً ؟ ينبغي للماركسيين أن لا يخشوا الانتقاد من أي شخص كان. بل عليهم أن يتمرسوا خلال الانتقاد من قبل الناس وعبر عواصف الكفاح حتى تتصلب أعوادهم ويطوروا صفوفهم ويوسعوا مراكزهم. يمكن أن نشبه النضال ضد الأفكار الخاطئة بالتلقيح ضد الجدري ، فإن الجسم يزداد مناعة تحت تأثير اللقاح. أما النبات الذي نما في بيت زجاجي فلا يكون قوياً متعافياً. وأن تطبيق

السياسة القائلة: "دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة فكرية تتبارى" ، لا يضعف مركز الماركسية القيادي في المجال الأيديولوجي ، بل على العكس من ذلك يعزز هذا المركز.

فما هي ، إذن ، السياسة الواجب إتباعها حيال الأفكار غير الماركسية ؟ إن حل هذه المسألة بسيط تجاه العناصر التي تجاهر الثورة بالعداء والعناصر التي تعمل على تقويض قضية الاشتراكية ، ذلك فقط بأن نحرمهم من حرية الكلام. ولكن الأمر يختلف حيال الأفكار الخاطئة الموجودة بين صفوف الشعب. فهل يمكن تحريم مثل هذه الأفكار وأن لا تعطى أية فرصة للإفصاح عنها ؟ كلا ، بالطبع. فإن استخدام الأساليب الجافة في معالجة المسائل ذات الصفة الأيديولوجية بين صفوف الشعب وفي معالجة مسائل العالم الروحي ، هو عديم الجدوى أبداً ، بل إنه مضر للغاية. وإذا لم يسمح بإبداء الأفكار الخاطئة ، فإن هذه الأفكار ستظل رغم ذلك قائمة. أما الأفكار الصحيحة فإنها إذا كانت ناشئة في بيوت زجاجية ولم تتعرض للعواصف والأعاصير ولم تكتسب المناعة ، فلن تتمكن من الانتصار حينما تواجهها الآراء الخاطئة. ولذلك لا يمكن إنماء الأفكار الصحيحة والتغلب على الأفكار الخاطئة بصورة عملية ولا يمكن حل المسائل حلاً حقيقياً إلا عن طريق النقاش والانتقاد والإقناع بالحجج.

ومن المؤكد أن البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ستعبران عن أيديولوجيتهما ، ومن المؤكد أنهما ستعبران عن نفسيهما في المسائل السياسية والأيديولوجية بعناد وبجميع الوسائل الممكنة ، ولا يمكن أن يتوقع المرء منهما غير ذلك. ولا يجوز لنا أن نلجأ إلى أسلوب الضغط لمنعهما من التعبير عن نفسيهما ، بل علينا أن ندعهما تفعلان ذلك ، ومتى فعلتا ناقشناهما ووجهنا لهما النقد الملائم. ومما لا شك فيه أن من واجبنا نقد الأفكار الخاطئة بجميع أنواعها. ولا يجوز بطبيعة الحال أن نتركها دون نقد وننظر إليها بلا مبالاة وهي تنتشر في كل مكان ، وندعها تحتكر السوق كما تشاء. إن الأخطاء يجب أن تنقد والأعشاب السامة يجب أن تكافح حيثما ظهرت ، إلا أن مثل هذا النقد لا يجوز أن يكون متصفاً بالجمود العقائدي ولا أن نستخدم فيه الأسلوب الميتافيزيقي ، بل ينبغي أن نستخدم الأسلوب الديالكتيكي قدر طاقتنا ، وينبغي أن نبني النقد على أساس التحليل العلمي والحجج القوية الإقناع. ولا يمكن حل المسائل عن طريق النقد المتصف بالجمود العقائدي. إننا نعارض جميع الأعشاب السامة ، ولكن علينا أن نميز بحذر بين ما هو حقاً عشبة سامة وما هو حقاً زهرة عاطرة. وعلينا ، بالاشتراك مع الجماهير ، أن نتعلم التمييز بحذر بين الأزهار العاطرة والأعشاب السامة ، وأن نكافح معها الأعشاب السامة باستخدام الأساليب الصحيحة.

وعلينا ، حينما ندحض الجمود العقائدي ، أن نعير اهتمامنا لدحض النزعة التحريفية. فالتحريفية أو الانتهازية اليمينية ، هي تيار أيديولوجي برجوازي أشد خطراً من الجمود العقائدي. إن المحرفين أي الانتهازيين اليمينيين ، يتشدقون بالماركسية ، وهم أيضاً يهاجمون "الجمود العقائدي". ولكن ما يهاجمونه هو بالضبط خلاصة الماركسية. إنهم يعارضون المادية والديالكتيكية أو يشوهونهما ، ويعارضون الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية والدور القيادي للحزب الشيوعي أو يحاولون إضعافهما ، ويعارضون التحويل الاشتراكي والبناء الاشتراكي أو يحاولون إضعافهما. وبعد أن انتصرت الثورة الاشتراكية بصورة أساسية في بلادنا ، لا يزال في المجتمع أناس تراودهم الأحلام بعودة النظام الرأسمالي ، فهم يناضلون ضد الطبقة العاملة في جميع الميادين بما في ذلك الميدان الأيديولوجي. والمحرفون هم خير أعوان لهم في هذا النضال.

إن الشعارين "دع مئة زهرة تتفتح" و"دع مئة مدرسة فكرية تتبارى" لا تحمل ألفاظهما طابعاً طبقياً بحيث من الممكن أن تستخدمهما البروليتاريا ، كما يمكن أن تستخدمهما البرجوازية والناس الآخرون. إن لكل طبقة ، ولكل فئة ، ولكل كتلة اجتماعية المفهوم الخاص بها عن الأزهار العاطرة والأعشاب السامة. فما هي المقاييس التي نميز بها اليوم بين الأزهار العاطرة والأعشاب السامة من وجهة نظر الجماهير الشعبية الغفيرة ؟ وكيف يمكن في مجرى حياة شعبنا السياسية التمييز بين الخطأ والصواب في أقوالنا وأفعالنا ؟ إننا نرى أنه ، بالاستناد إلى مبادئ دستور بلادنا وإرادة الأكثرية الساحقة من شعبنا وبالاستناد إلى المواقف السياسية المشتركة التي أعلنتها جميع الأحزاب والجماعات السياسية في بلادنا في مناسبات مختلفة ، يمكننا أن نضع لذلك ، على وجه عام ، المقاييس الآتية:

(1) أن تساعد أقوالنا وأفعالنا على توحيد الشعب من مختلف القوميات في بلادنا ، لا أن تعمل على تقسيمه ؛

(2) أن تساعد على التحويل الاشتراكي والبناء الاشتراكي ، لا أن تضر بهما ؛

(3) أن تساعد على توطيد الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية ، لا أن تقوضها أو تضعفها ؛

(4) أن تساعد على توطيد نظام المركزية الديمقراطية ، لا أن تهدمه أو تضعفه ؛

(5) أن تساعد على تعزيز قيادة الحزب الشيوعي ، لا أن تحاول التخلص منها أو تضعفها ؛

(6) أن تساعد على التضامن الأممي الاشتراكي ، والتضامن الأممي بين جميع الشعوب المحبة للسلام في العالم ، لا أن تلحق بهما ضرراً أو أذى. وأهم هذه المقاييس الستة هو مقياس الطريق الاشتراكي ومقياس قيادة الحزب. إن الغاية من عرض هذه المقاييس هي مساعدة الشعب على توسيع نطاق المناقشات الحرة بينه حول المسائل المتنوعة ، لا عرقلتها. أما الذين لا يوافقون على هذه المقاييس فما زال بوسعهم أن يبدوا آراءهم ويجادلوا. إلا أنه حين تصبح لدى معظم الناس مقاييس محددة واضحة ، يمكن أن يجرى الانتقاد والانتقاد الذاتي على طريق صحيح ، ويمكن أن نحكم بها على أقوال الناس وأفعالهم ونعرف ما إذا كانت صحيحة أم لا ، وما إذا كانت أزهاراً عاطرة أم أعشاباً سامة. والمقاييس المذكورة آنفاً هي مقاييس سياسية. أما معرفة صحة النظريات العلمية أو خطئها ومعرفة المستوى الفني للأعمال الفنية فتستلزم بالطبع بعض مقاييس خاصة أخرى. بيد أنه يمكن تطبيق هذه المقاييس السياسية الستة أيضاً في الحكم على أي عمل علمي أو فني. إذ كيف يعقل أن يكون عمل علمي أو فني مفيداً في بلاد اشتراكية كبلادنا إذا كان متنافياً مع هذه المقاييس السياسية ؟

إن جميع وجهات النظر المعروضة آنفاً هي مبنية على ظروف بلادنا التاريخية المحددة. وبما أن الأوضاع تختلف في مختلف البلدان الاشتراكية والأحزاب الشيوعية ، فإننا لا نعتقد أن اتخاذ الأساليب الصينية ضروري أو واجب بالنسبة إلى بقية البلدان والأحزاب.

ثم إن شعار "التعايش الطويل الأمد والرقابة المتبادلة" هو أيضاً من نتائج الظروف التاريخية المحددة في بلادنا. وهذا الشعار لم يكن وليد الصدفة ، بل جرى إعداده طوال عدة سنوات. إن فكرة التعايش الطويل الأمد كانت موجودة منذ زمن بعيد. وفي السنة الماضية حين أقيم النظام الاشتراكي من حيث الأساس ، أطلق هذا الشعار في صيغته الواضحة. لماذا ندع الأحزاب الديمقراطية التابعة للبرجوازية وللبرجوازية الصغيرة تتعايش تعايشاً طويل الأمد مع حزب الطبقة العاملة ؟ يعود هذا إلى أنه ليس هناك ما يسوغ لنا ألا ننتهج سياسة التعايش الطويل الأمد مع جميع الأحزاب التي تعمل جاهدة ، بالفعل ، على توحيد الشعب في سبيل قضية الاشتراكية والتي تتمتع بثقة الشعب. لقد قلت في الدورة الثانية للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني في يونيو (حزيران) 1950 ما يلي: "إذا كان أحد يرغب حقاً في خدمة الشعب وكان قد ساعده حقاً في فترة عسيرة وأتى بأعمال طيبة وثابر على ذلك فيما بعد أيضاً دون أن يتوقف في منتصف الطريق ، فلا يسوغ للشعب والحكومة الشعبية أن يقصيه أو لا يعطيه الفرصة لكي يعيش ويخدم الشعب." إن ما قلته هنا يشكل بالضبط الأساس السياسي للتعايش الطويل الأمد بين الأحزاب المختلفة. إن التعايش الطويل الأمد بين الحزب الشيوعي والأحزاب الديمقراطية هو رغبتنا ، وهو كذلك سياستنا. أما مسألة ما إذا كانت الأحزاب الديمقراطية تستطيع البقاء زمناً طويلاً ، فهي أمر لا يتوقف على رغبة الحزب الشيوعي وحده ، بل يتوقف كذلك على تصرفات مختلف الأحزاب الديمقراطية وعلى ما إذا كانت تحظى بثقة الشعب أم لا. وواقع الرقابة المتبادلة بين الأحزاب قائم أيضاً منذ زمن بعيد ، ومعنى الرقابة المتبادلة هو أن يوجه بعضها إلى البعض الآخر الملاحظات وتبادل الانتقادات. والرقابة المتبادلة ليست بالطبع وحيدة الجانب ، فبوسع الحزب الشيوعي أن يراقب الأحزاب الديمقراطية ، وبوسع الأحزاب الديمقراطية أن تراقب الحزب الشيوعي كذلك. ولماذا يسمح لأحزاب الديمقراطية بالرقابة على الحزب الشيوعي ؟ لأن الحزب ، شأنه شأن الإنسان ، بحاجة كبيرة إلى سماع آراء تخالف آراءه. وكل يعلم أن من يقوم بالرقابة على الحزب الشيوعي هو بالدرجة الأولى الشعب الكادح وجماهير أعضاء الحزب. غير أن الفائدة تكون أكثر عندما تشترك الأحزاب الديمقراطية في هذه الرقابة. ولا شك في أن الملاحظات المقدمة والانتقادات المتبادلة بين الأحزاب الديمقراطية والحزب الشيوعي لا تتيحان إبراز الدور الإيجابي للرقابة المتبادلة إلا عندما تتطابق هذه الملاحظات والانتقادات مع المقاييس السياسية الستة التي سبق ذكرها. ولذلك نرجو أن توجه جميع الأحزاب الديمقراطية انتباهها إلى إصلاح أيديولوجيتها ، وأن تسعى إلى تحقيق التعايش الطويل الأمد مع الحزب الشيوعي والرقابة المتبادلة بينها وبينه لكي تساير متطلبات المجتمع الجديد.

9- حول مسألة الاضطرابات التي أثارها عدد قليل من الناس

حدثت في أماكن قليلة عام 1956 إضرابات قام بها عدد قليل من العمال والطلاب. والسبب المباشر لهذه الاضطرابات كان عدم الاستجابة لبعض مطالبهم الاقتصادية ؛ ومن هذه المطالب ما يجب ويمكن أن يستجاب ، ومنها مطالب غير مناسبة وأخرى تجاوزت الحد بحيث لايمكن الاستجابة لها في ذلك الوقت. بيد أن هناك عامل أكثر أهمية من عوامل وقوع هذه الاضطرابات ، هو الأسلوب البيروقراطي من جانب القادة. والمسئولية عن بعض الأخطاء الناشئة عن هذا الأسلوب تقع على عاتق الأجهزة القيادية العليا ، فلا يجوز إلقاء التبعة بكاملها على عاتق المستويات الدنيا. وهناك سبب آخر للاضطرابات هو افتقار العمال والطلاب إلى التثقيف الأيديولوجي والسياسي. ووقعت في سنة 1956 أيضاً بعض الاضطرابات بين عدد قليل من أعضاء التعاونيات الزراعية ، وكان سببها الرئيسي أيضاً هو الأسلوب البيروقراطي من جانب القادة وافتقار الجماهير إلى التثقيف.

ينبغي الاعتراف بأنه في كثير من الحالات يميل قسم من الجماهير إلى تركيز انتباهه على مصالحه الوقتية الجزئية الشخصية ، ولم يدرك ، أو لم يكتمل إدراكه للمصالح الطويلة الأمد ، مصالح الدولة بأسرها والمصالح الجماعية. إن عدداً غير قليل من الشبيبة بسبب افتقارهم إلى التجربة السياسية وتجربة الحياة الاجتماعية ، لا يحسنون المقارنة بين الصين القديمة والصين الجديدة ، فمن الصعب عليهم أن يدركوا إدراكاً عميقاً كيف خاض شعبنا ذلك الكفاح المرير ، وكيف اجتاز صنوف العقبات ، وتحمل أنواع المشاق ، حتى استطاع أن يتخلص من اضطهاد الامبرياليين وزمرة الكومينتانغ الرجعية ، ومن الصعب كذلك أن يدركوا إدراكاً عميقاً أن إقامة مجتمع اشتراكي سعيد لا يمكن أن تتحقق إلا بالأعمال المضنية في وقت طويل. ولذلك ينبغي لنا أن نقوم بلا انقطاع بالتثقيف السياسي الحي الفعال بين الجماهير ، وأن نشرح لها دائماً ما يحدث من صعوبات على حقيقتها ، وأن نشاورها فيما يجب اتخاذه من تدابير للتغلب على هذه الصعوبات.

نحن لا نوافق على إثارة الاضطرابات ، لأن التناقضات بين صفوف الشعب يمكن حلها بطريقة "وحدة —نقد-وحدة" ، في حين أن الاضطرابات لابد أن تسبب خسائر وذلك أمر يضر بنمو القضية الاشتراكية. نحن متأكدون من أن الجماهير الشعبية الغفيرة في بلادنا تناصر الاشتراكية ، وأنها تلتزم بجدية بالنظام وتخضع للصواب فلن تثير أبداً الاضطرابات بلا مبرر. إلا أن هذا لا يعني بتاتاً أن إمكانية وقوع الاضطرابات بين الجماهير في بلادنا قد زالت. وفي هذه المسألة ينبغي أن نوجه انتباهنا إلى ما يلي:

1- من الضروري ، لكي نقضي على أساليب الاضطرابات من جذورها ، أن نتخلص بشكل حازم من البيروقراطية ، وأن نعزز عملنا في مجال التثقيف الأيديولوجي والسياسي كما يجب ، وأن نعالج جميع أنواع التناقضات معالجة صحيحة. فإذا تحقق هذا الشرط فلن تعود هناك اضطرابات بوجه عام.

2- إذا ما وقعت اضطرابات بسبب التقصير في عملنا ، فينبغي توجيه الجماهير المشتركة فيها وجهة صحيحة ، واستخدام هذه الاضطرابات كوسيلة خاصة لتحسين العمل ولتثقيف الكوادر والجماهير ، فنحل بذلك المسائل التي لم نستطع حلها في الأوقات الاعتيادية. وينبغي القيام بعمل دقيق في أثناء معالجة أي اضطراب ، فلا يجوز اللجوء في معالجتها إلى أساليب جافة ، ولا يجوز "التهور في إعلان إنهاء القضية". لا يجوز أن يعاقب المحرضون على الاضطرابات بالطرد دون تبصر ، باستثناء العناصر التي خالفت قانون العقوبات والعناصر المعادية للثورة التي ما زالت تقوم بنشاط تخريبي ، وهذه العناصر ينبغي أن تعاقب وفقاً للقانون. إن اضطرابات يقوم بها عدد قليل من الناس في بلاد مترامية الأطراف كبلادنا ليست أمراً يدعو الدهشة والاستغراب ، بل هي أمر سيساعدنا كثيراً على التخلص من الأسلوب البيروقراطي.

في مجتمعنا كذلك عدد ضئيل من الناس يتجاهلون المصالح العامة ، ويخالفون القانون بعناد ويرتكبون الجرائم. ومن الممكن أن يستغلوا سياساتنا أو يشوهوها فيتقدموا عن قصد بمطالب غير معقولة بغية إثارة الجماهير أو ينشروا عن قصد الشائعات لخلق الاضطرابات والإخلال بالأمن العام في المجتمع. إننا لا نوافق على أن ندع هؤلاء الناس يتصرفون على هواهم ، بل بالعكس ، يجب أن ننزل بهم العقوبات الضرورية طبقاً للقانون. إن معاقبة هذه الفئة من الناس هي مطلب جماهير المجتمع الغفيرة ، وعدم معاقبتهم هو أمر يتنافى مع رغبة الجماهير.

10- هل يمكن أن يتحول شيء سيء إلى شيء حسن ؟

إن إثارة الاضطرابات من قبل الجماهير هي شيء سيئ في مجتمعنا لا نستطيع الموافقة عليه كما ذكرت آنفاً. ولكن مثل هذه الحوادث حين تقع فعلاً ، يمكن أن تدفعنا إلى استخلاص العبر ، وإلى التخلص من البيروقراطية ، وإلى تثقيف الكوادر والجماهير. فإذا نظرنا إلى الأمور من هذه الزاوية فإن الشيء السيئ يمكن أن يتحول إلى شيء حسن. إن للاضطرابات طابعاً مزدوجاً ، وبوسعنا أن نواجه جميع الاضطرابات من وجهة النظر هذه.

إن أحداث هنغاريا ليست شيئاً حسناً ، وهذا أمر بدهي في نظر كل إنسان. إلا أن لهذه الأحداث أيضاً طابعاً مزدوجاً ، فبفضل التدابير الصحيحة التي اتخذها الرفاق الهنغاريون أثناء هذه الأحداث ، تحولت هي من شيء سيء إلى شيء حسن. ولقد باتت هنغاريا الآن أشد متانة من ذي قبل ، كما أن بلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى قد استخلصت الدروس من ذلك.

وكذلك كان التيار المعادي للشيوعية والمعادي للشعوب ، الذي هب على نطاق عالمي في النصف الثاني من سنة 1956 ، شيئاً سيئاً بالطبع. ولكنه علم وصهر الأحزاب الشيوعية والطبقة العاملة في بلدان مختلفة ، وبذلك تحول إلى شيء حسن. وأمام هذا التيار ترك عدد من الناس عضوية الأحزاب الشيوعية في بلدان كثيرة. إن تخلي بعض الأعضاء عن عضوية حزب شيوعي وتقلص عدد أعضاء هذا الحزب ، هو بالتأكيد شيء سيء ، إلا أن لهذا الأمر جانباً آخر حسناً. فالعناصر المتذبذبة لم ترغب في مواصلة النضال فتركت عضوية الحزب ، وبذلك يتمكن معظم الأعضاء ، وهم أعضاء راسخون ، من أن يتحدوا للنضال معاً على نحو أفضل ، فأي شيء سيء في هذا ؟

وموجز القول أنه يجب علينا أن نتعلم كيف ننظر في المسائل من جميع جوانبها ، أي علينا ألا ننظر في جوانبها الأمامية وحدها ، بل إلى جوانبها الخلفية أيضاً. ففي ظروف معينة يمكن أن يؤدي شيء سيء إلى نتائج حسنة ، كما يمكن أن يؤدي شيء حسن إلى نتائج سيئة. لقد قال لاوتسي قبل أكثر من 2000سنة: "في التعاسة تعيش السعادة وفي السعادة تكمن التعاسة"[(6)]. إن غزو الصين من قبل اليابان كان في نظر اليابانيين نصراً ، واحتلال مناطق واسعة من الصين من قبل المعتدين كان في نظر الصينيين هزيمة. بيد أنه في هزيمة الصين كان يكمن النصر ، وفي انتصار اليابان كانت تكمن الهزيمة. أو لم يثبت التاريخ صحة ذلك ؟

يتساءل الناس في جميع بلدان العالم اليوم أتنشب حرب عالمية ثالثة أم لا؟ وعلينا نحن ، حيال هذه المسألة ، أن نكون مستعدين معنوياً ، وأن نقوم بتحليلات تتعلق بذلك. إننا نثابر على حماية السلم ونناهض الحرب. ولكن إذا أصر الامبرياليون على إثارة الحرب فلا ينبغي أن نخاف منها. إن موقفنا تجاه هذه المسألة هو نفس موقفنا تجاه كل "الاضطرابات": أولاً ، إننا ضدها ، وثانياً ، نحن لا نخاف منها. لقد أعقب الحرب العالمية الأولى ميلاد الاتحاد السوفياتي وعدد سكانه 200 مليون. ثم أعقب الحرب العالمية الثانية ظهور المعسكر الاشتراكي ومجموع سكانه 900 مليون. فإذا أصر الامبرياليون على شن حرب عالمية ثالثة ، فمن المؤكد أن مئات ملايين أخرى من الناس سيتحولون إلى جانب الاشتراكية نتيجة لهذه الحرب ، ولا يبقى تحت حكم الإمبريالية حينئذ سوى رقعة صغيرة من الأرض ، ومن المحتمل أيضاً أن ينهار كل النظام الامبريالي انهياراً تاماً.

إن كل طرف من الطرفين المتناقضين المتضادين لابد أن يتحول ، تحت شروط معينة ، إلى نقيضه نتيجة الصراع بينهما. إن الشروط هنا هامة. فبدون شروط معينة ، لا يمكن لأي طرف من هذه الطرفين المتصارعين أن يتحول إلى نقيضه. إن البروليتاريا هي التي ترغب أكثر من أي طبقة أخرى في العالم في تغيير وضعها ، وتعقبها في ذلك شبه البروليتاريا ، ذلك لأن الأولى لا تملك شيئاً البتة ، والثانية تملك شيئاً ولكنه قليل. إن الوضع الراهن الذي تتحكم فيه الولايات المتحدة في أكثرية الأصوات في هيئة الأمم المتحدة وتسيطر على العديد من مناطق العالم ، لم يكن سوى مرحلة عابرة ، فسيأتي حتماً اليوم الذي يتغير فيه هذا الوضع. وسيتغير كذلك وضع الصين بصفتها بلاداً فقيرة ومحرومة من جميع الحقوق في المسرح الدولي ، وستصبح هذه البلاد الفقيرة بلاداً غنية وتحوز على جميع حقوقها بعد أن كانت محرومة منها ، أي أنها ستتحول إلى نقيضها. والشرط الحاسم هنا هو النظام الاشتراكي ونضال الشعب المتراص كرجل واحد.

11- حول الاقتصاد في النفقات

أود أن أتحدث هنا عن مسألة الاقتصاد في النفقات. إننا في حاجة إلى القيام بالبناء على نطاق واسع ، ولكن بلادنا لا تزال فقيرة جداً ، ويكمن هنا تناقض. ومن الوسائل الصالحة لحل هذا التناقض أن نمارس الاقتصاد والتوفير بدقة في جميع الميادين ونثابر على ذلك.

ففي حركة "سان فان" (ضد الشرور الثلاثة) عام 1952 ، كافحنا الاختلاس والإسراف والبيروقراطية ، وركزنا على مكافحة الاختلاس. وفي عام 1955 نادينا بممارسة الاقتصاد والتوفير ، ووجهنا اهتمامنا آنذاك إلى مكافحة المستويات العالية غير المطلوبة في بناء المشاريع الأساسية غير الإنتاجية ، وكذلك إلى الاقتصاد في استخدام المواد الأولية في الإنتاج الصناعي ، ولقد أحرزنا نجاحات كبيرة في هذا الصدد ففي ذلك الحين لم تكن سياسة الاقتصاد في النفقات مطبقة بجدية في جميع فروع الاقتصاد الوطني ، ولا في الدوائر الحكومية والوحدات العسكرية والمؤسسات التعليمية والمنظمات الشعبية بوجه عام. أما في السنة الحالية ، فمن الضروري أن ندعو إلى الاقتصاد في النفقات ومكافحة الإسراف في جميع ميادين حياة البلاد. إن الخبرة لا تزال تعوزنا في البناء. وقد حصلت في هذا المجال في السنوات القليلة المنصرمة ، إلى جانب النجاحات الكبيرة ، حالات إسراف أيضاً. وعلينا أن نبني شيئاً فشيئاً عدداً من المؤسسات الكبيرة الحديثة لنجعل منها عموداً فقرياً للصناعة ، وبدون ذلك يستحيل تحويل بلادنا في مدى عشرات من السنين إلى دولة قوية ذات صناعة حديثة. غير أنه لا يجوز لنا أن نبني أكثرية المؤسسات على هذا النحو ، بل ينبغي أن ننشئ المزيد من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، وأن نستغل لهذا الغرض أسس الصناعات التي ورثناها عن المجتمع القديم خير استغلال ، وأن نبذل جميع جهودنا من أجل الاقتصاد حتى نستطيع أن ننجز أعمالاً أكثر بأموال أقل. وفي الأشهر القليلة الماضية ظهرت نتائج جيدة منذ أن بدأ تنفيذ مبدأ ممارسة الاقتصاد والتوفير بدقة ومكافحة الإسراف ، الذي وضعته وشددت عليه الدورة الثانية العامة التي عقدتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في نوفمبر (تشرين الثاني) 1956. فعلينا أن نثابر على حملة الاقتصاد والتوفير الحالية بصورة كاملة. إن مكافحة الإسراف ، شأنها شأن انتقاد الأخطاء والنواقص الأخرى ، يمكن تشبيهها بغسل الوجه. أو ليس على المرء أن يغسل وجهه كل يوم ؟ إن على الحزب الشيوعي الصيني ، والأحزاب الديمقراطية ، والشخصيات الديمقراطية اللاحزبية ، والمثقفين ، والصناعيين والتجار ، والعمال ، والفلاحين ، والحرفيين ، وبكلمة مختصرة ، علينا جميعاً نحن الـ 600 مليون نسمة ، أن نناضل من أجل زيادة الإنتاج وممارسة الاقتصاد والتوفير ، ونكافح ضد الإسراف والتبذير. هذا الأمر ذو أهمية بالغة لا من الناحية الاقتصادية فحسب ، بل من الناحية السياسية أيضاً. وهناك حالة سيئة جداً هي أن ميولاً خطرة تنمو الآن بين كثير من الموظفين عندنا تتمثل في امتناعهم عن مشاركة الجماهير في السراء والضراء ، وفي سعيهم وراء الشهرة الشخصية والمنفعة الفردية. ومن أساليبنا للتغلب على هذه الميول أن نبسط أجهزتنا الإدارية أثناء حملات زيادة الإنتاج وممارسة الاقتصاد والتوفير ونقل الكوادر إلى الهيئات القاعدية ، حتى يتسنى لعدد كبير من الكوادر العودة إلى أعمال الإنتاج. وعلينا أن نذكر جميع الكوادر وأبناء الشعب على الدوام بأن الصين بلد اشتراكي كبير ، ولكنها بلد فقير متخلف اقتصادياً ، وهذا تناقض كبير جداً. فلكي تصبح بلادنا غنية وقوية يجب علينا بذل جهود مضنية مدى عشرات من السنين ، ومن بين هذه الجهود أن نطبق سياسة بناء بلادنا بالعمل المجد والاقتصاد في النفقات ، التي تقضي بممارسة الاقتصاد والتوفير ممارسة دقيقة وبمكافحة الإسراف.

12- طريق تصنيع الصين

إن المقصود بمسألة طريق التصنيع التي نتحدث عنها هنا هو بالدرجة الأولى مسألة العلاقة بين تطوير الصناعة الثقيلة والصناعة الخفيفة والزراعة. يجب أن نؤكد أن الصناعة الثقيلة هي نواة البناء الاقتصادي في بلادنا. ولكن من الضروري أن نولي في الوقت ذاته اهتماماً كافياً إلى تطوير الزراعة والصناعة الخفيفة.

إن بلادنا بلاد زراعية كبيرة يتجاوز عدد سكان الريف فيها 80 بالمائة من مجموع السكان ، فينبغي أن يسير تطوير الصناعة جنباً إلى جنب مع تطوير الزراعة ، وفقط في هذه الحالة تتوفر للصناعة المواد الأولية والسوق ، وفقط في هذه الحالة يمكن توفير

الرساميل الهائلة لإنشاء صناعة ثقيلة قوية. كل يعرف أن الصناعة الخفيفة والزراعة مترابطتان ترابطاً وثيقاً للغاية. فلا صناعة خفيفة بدون زراعة. ولم يتضح للناس حتى الآن تماماً أن الصناعة الثقيلة لابد أن تتخذ الزراعة سوقاً هاماً لها. ولكن سوف يتسنى للناس أن يفهموا ذلك تبعاً لتطور الإصلاح الزراعي التكنيكي تدريجياً واستمرار تقدم الزراعة نحو زراعة حديثة وازدياد ما يخدم الزراعة من الماكينات والأسمدة ومنشآت الري ومشاريع الطاقة الكهربائية ووسائل النقل وكذلك الوقود ومواد البناء اللذين يحتاج إليهما سكان الريف. فإذا كان من الممكن أن تتطور زراعتنا تطوراً أسرع في غضون مشروعي السنوات الخمس الثاني والثالث وأن تتطور تبعاً لذلك الصناعة الخفيفة تطوراً أكثر فسيكون كل ذلك مفيداً للاقتصاد الوطني بمجموعه. حين تتطور الزراعة والصناعة الخفيفة فإن الصناعة الثقيلة بعد ذلك ستجد أسواقاً وموارد مالية وبذلك تتطور بسرعة أعظم. قد يبدو — إذا عملنا على هذا النحو — أن التصنيع يسير في شيء من البطء ولكنه في الواقع ليس كذلك ، بل حتى يمكن أن يكون أسرع. وهكذا يمكن ، في غضون ثلاثة مشروعات خمسية أو خلال مدة أطول بقليل ، أن يرتفع إنتاج الفولاذ السنوي في بلادنا ، من 900.000 طن وأكثر في عام 1943 وهو أعلى مستوى بلغه إنتاج الفولاذ قبل التحرير ، إلى 20 مليون طن أو أكثر ، وعندئذ سوف يغتبط بذلك أبناء الشعب في المدن والقرى.

ليس في نيتي الآن أن أتحدث طويلاً حول المسائل الاقتصادية. إن الخبرة لا تزال تنقصنا في مجال البناء الاقتصادي لأننا باشرنا هذا العمل لمدة سبع سنوات فقط ، فلا نزال في حاجة إلى تجميع المزيد من الخبرات. وفي مجال الثورة لم تكن لنا خبرة في بادئ الأمر أيضاً ، إلا أننا اكتسبنا هذه الخبرة بعد أن تعرضنا للانتكاسات والهزائم ، وبعد ذلك فقط أحرزنا النصر في البلاد كلها. غير أننا نرجو أن تكون مرحلة اكتسابنا للخبرة في مجال البناء الاقتصادي أقصر من مرحلة اكتسابنا للخبرة الثورية ، كما نرجو أن لا يكلفنا اكتساب هذه الخبرة ذلك الثمن الغالي. صحيح ، لابد من دفع الثمن ، ولكننا نأمل على كل حال ألا يكلفنا نفس الثمن الغالي الذي دفعناه في مرحلة الثورة. من الضروري أن ندرك أن في هذا الأمر تناقضاً ، هو تناقض بين القوانين الموضوعية للتطور الاقتصادي في مجتمع اشتراكي وبين إدراكنا الذاتي ، وهذا التناقض يجب حله في الممارسة العملية. ويظهر هذا التناقض أيضاً بين مختلف الناس أي بين من يفهمون تلك القوانين الموضوعية فهماً صحيحاً نسبياً وبين من يفهمونها فهماً خاطئاً نسبياً ، ولذلك فإن هذا التناقض هو أيضاً تناقض بين صفوف الشعب. كل تناقض هو واقع موضوعي ، ومهمتنا أن نفهمه ونحله على نحو صحيح بقدر الإمكان.

ولكي نجعل من بلادنا دولة صناعية ، يجب علينا أن ندرس بشكل جدي خبرة الاتحاد السوفياتي المتقدمة. فالاتحاد السوفياتي قد مضت على بنائه الاشتراكي أربعون سنة ، وخبرته جد ثمينة بالنسبة إلينا. فلنسأل: من صمم وجهز لنا هذا العدد الكبير من المصانع المهمة ؟ أهي أمريكا ؟ أهي بريطانيا ؟ كلا ، ليست أمريكا ولا بريطانيا ، وإنما الاتحاد السوفياتي وحده هو الذي كان راغباً في أن يفعل ذلك ، لأنه بلاد اشتراكية ، لأنه حليفنا. وبالإضافة إلى الاتحاد السوفياتي ، فقد حصلنا على العون إلى حد ما من بعض البلدان الشقيقة في أوربا الشرقية أيضاً. ومن الصحيح تماماً أنه ينبغي لنا أن ندرس الخبرة الجيدة لدى جميع البلدان ، اشتراكية كانت أم رأسمالية ، هذا أمر لا جدال فيه. غير أن الشيء الرئيسي هو أن نتعلم من الاتحاد السوفياتي. هناك موقفان إزاء الدراسة ، أحدهما هو موقف الجمود العقائدي الذي لا يعبأ صاحبه بالأوضاع القائمة في بلادنا بل يقلد كل شيء دون تمييز بين ما هو قابل للتطبيق وما هو غير قابل له. وهذا الموقف ليس حسناً. أما الموقف الآخر فهو موقف مفاده استخدام العقل أثناء الدراسة ، والاستفادة مما يتلاءم مع الظروف القائمة في بلادنا ، أي استيعاب الخبرة التي فيها فائدة لنا. وهذا الموقف الأخير هو الذي نحن بحاجة إليه.

إن توطيد التضامن مع الاتحاد السوفياتي وتوطيد التضامن مع سائر البلدان الاشتراكية هو سياستنا الأساسية وهو موضع مصالحنا الأساسية. ثم أن علينا أن نوطد وننمي التضامن مع بلدان آسيا وأفريقيا ، وكذلك مع سائر البلدان والشعوب المحبة للسلام. فإذا تحقق اتحادنا مع هاتين القوتين فلن نكون منعزلين. أما البلدان الإمبريالية ، فينبغي لنا أيضاً أن نتحد مع شعوبها ، وأن نسعى إلى التعايش في سلم مع هذه البلدان وإلى إجراء تعامل تجاري معين معها ، وأن نحول دون نشوب أي حرب محتملة الوقوع ، ولكن لا يجوز على الإطلاق أن تخامرنا أفكار لا تتفق مع الواقع تجاه هذه البلدان.

ملاحظات

(1) أحداث هنغاريا يقصد بها العصيان المعادي للثورة الذي وقع في هنغاريا في أكتوبر (تشرين الأول) 1956. ففي أواخر هذا الشهر انفجرت في هنغاريا إحدى البلدان الاشتراكية في شرق أوربا اضطرابات معادية للثورة دبرتها الامبريالية، حيث قتل الشيوعيون والثوريون الآخرون بالجملة واحتلت العاصمة بودابست فترة من الزمن. وكانت الامبريالية تحاول أن تفتح ثغرة في المعسكر الاشتراكي عبر هنغاريا بغية تحطيم البلدان الاشتراكية الواحد تلو الآخر. وفي 4 نوفمبر (تشرين الثاني)، أسس الشعب الهنغاري حكومته الثورية للعمال والفلاحين وتمكن، بفضل مساعدة الجيش الأحمر السوفياتي وعطف وتأييد سائر بلدان المعسكر الاشتراكي والقوى التقدمية في العالم، من سحق مؤامرات المعادين للثورة، الرامية إلى إعادة سلطتهم.

(2) إن دفع "فوائد محددة النسبة" هو سياسة تعويض طبقتها الدولة تجاه البرجوازية الوطنية أثناء التحويل الاشتراكي في بلادنا بغرض شراء وسائل إنتاجها. وبعد أن تم تحويل المؤسسات الصناعية والتجارية الرأسمالية في جميع المجالات إلى مؤسسات مشتركة تملكها الدولة والأفراد في عام 1956، بدأت الدولة تدفع، خلال فترة معينة من الزمن، للبرجوازيين الوطنيين سنوياً فوائد بنسبة محددة وفقاً للقيمة النقدية لممتلكاتهم، وهي تسمى فوائد محددة النسبة. وما زالت هذه الفوائد تتسم بصفة استغلالية.

(3) بناء على اقتراح الرفيق ماو تسي تونغ هذا، أجرت الحكومة المركزية والحكومات المحلية على جميع المستويات تحقيقاً شاملاً في عمل استئصال العناصر المعادية للثورة عام 1957. وأثبتت نتيجة هذا التحقيق أنه خلال النضال الذي جرى في بلادنا من أجل استئصال العناصر المعادية للثورة قد تحققت منجزات كبرى وعولجت جميع القضايا تقريباً معالجة صائبة باستثناء حالات قليلة، وفضلاً عن ذلك قد تم تصحيح الأخطاء فور اكتشافها. وفي صيف عام 1957، انتهز اليمينيون البرجوازيون فرصة قيامنا بالتحقيق في عمل استئصال العناصر المعادية للثورة فأثاروا الاضطرابات محاولين إنكار منجزاتنا في هذا العمل والهجوم على سياسة الحزب في هذا الحقل. ومنيت محاولتهم هذه بالفشل نتيجة لمقاومة شعب البلاد بأسرها.

(4) كانت تعاونية وانغ قوه فان هي تعاونية جيان مينغ للإنتاج الزراعي والتشجير وتربية المواشي في قرية شيسشليبو في محافظة تسونخوا بمقاطعة خبى. وكانت هذه التعاونية، بفضل قيادة رئيسها وانغ قوه فان، تشتهر في طول البلاد وعرضها بـ "العمل المجد والاقتصاد في النفقات". وقد توسعت وتحولت إلى كومونة جيان مينغ الشعبية في سبتمبر (أيلول) 1958، وبقي وانغ قوه فان رئيساً لها.

(5) تم إجراء الإصلاحات الديمقراطية في التبت قبل الموعد المحدد. وفي 19 مارس (آذار) 1959، شنت الحكومة المحلية التبتية والرجعيون في الفئة الاجتماعية العليا في التبت، بعد مدة طويلة من التخطيط والتحضير، عصياناً مسلحاً شامل النطاق، متواطئين مع الإمبرياليين وعناصر دخيلة من خارج الصين. وقد تمكن جيش التحرير الشعبي من إخماد هذا العصيان بسرعة، نتيجة للمساعدة الفعالة التي قامت بها الجماهير الشعبية الغفيرة في التبت من الكهنة البوذيين والعلمانيين الوطنيين. وبعد ذلك أجريت الإصلاحات الديمقراطية في المناطق الواسعة من التبت، حيث تخلص أبناء الشعب في التبت من نير نظام القنانة الأكثر ظلاماً ووحشية.

(6) انظر إلى "الاوتسي"، الفصل 58.

من أين تأتي الأفكار السديدة ؟

(مايو أيار – 1963)

من أين تأتي الأفكار السديدة ؟ هل تنزل من السماء ؟ لا. هل هي فطرية في عقل الإنسان ؟ لا. إنما تأتي من الممارسة الاجتماعية بأنواعها الثلاثة: النضال من أجل الإنتاج ، والصراع الطبقي ، والتجربة العملية. إن الوجود الاجتماعي للإنسان هو الذي يحدد تفكيره. وما أن تستوعب الجماهير الأفكار السديدة التي تتميز بها الطبقة المتقدمة ، حتى تتحول هذه الأفكار إلى قوة مادية تبدل المجتمع وتبدل العالم. إن الناس ، في ممارستهم الاجتماعية ، يزاولون النضال بمختلف أنواعه وأشكاله فيستمدون التجارب الغنية من نجاحهم وفشلهم على السواء. وينعكس عدد لا يحصى من ظواهر العالم الموضوعي في عقل الإنسان عبر حواسه الخمس – البصر والسمع والشم والذوق واللمس فتتكون المعرفة الحسية في البداية ، ثم تحدث لها قفزة إلى المعرفة العقلانية ، أي الأفكار ، وذلك بعد تراكم ما يكفي من معطيات هذه المعرفة الحسية. تلك مرحلة من مراحل عملية المعرفة. وهي المرحلة الأولى من عملية المعرفة بمجموعها ، مرحلة الانتقال من المادة الموضوعية إلى الوعي الذاتي ، من الوجود إلى الفكر. إلا أنه لم يثبت بعد في هذه المرحلة ما إذا كان وعي المرء أو أفكاره (بما في ذلك النظريات والسياسات والمخططات والإجراءات) يعكس قوانين العالم الموضوعي على حقيقتها أم لا ، حيث لا يمكن التأكد من صحتها أو عدم صحتها. ثم تأتي المرحلة الثانية في عملية المعرفة ، مرحلة الانتقال من الوعي إلى المادة ثانية ، من الفكر إلى الوجود حيث توضع المعرفة التي تم الحصول عليها في المرحلة الأولى موضع الممارسة الاجتماعية للتأكد مما إذا كانت هذه النظريات أو السياسات أو المخططات أو الإجراءات ، تتكلل بالنجاح المتوقع أم لا. وعلى وجه العموم فإنها صواب إذا كانت ناجحة ، وخطأ إذا كانت فاشلة ، وذلك صحيح خاصة فيما يتعلق بصراع الإنسان مع الطبيعة. وفي النضال الاجتماعي نجد القوى التي تمثل الطبقة المتقدمة تتعرض للفشل أحياناً ، وذلك لا لأن أفكارها ليست سديدة بل لأنها ، فيما يتعلق بميزان القوى في النضال ، أضعف من القوى الرجعية لوقت معين ، لذلك تنزل بها الهزيمة مؤقتاً ، إلا أنها ستنتصر عاجلاً أم آجلاً. ثم تحدث قفزة أخرى في معرفة الإنسان عبر الاختبار في الممارسة العملية. وهذه القفزة أعظم أهمية من سابقتها ، ذلك لأن هذه القفزة وحدها هي التي تتمكن من إثبات صحة أو خطأ القفزة الأولى من المعرفة ، أي الأفكار أو النظريات أو السياسات أو المخططات أو الإجراءات التي تشكلت في مجرى انعكاس العالم الموضوعي ، وليست هناك طريقة غير هذه لاختبار الحقيقة. ومن ثم فإن الغرض الوحيد للبروليتاريا من معرفة العالم هو تغييره. إن التوصل إلى معرفة سديدة لا يتم ، في الغالب ، إلا بعد التكرار المتعدد لعملية الانتقال من المادة إلى الوعي ، ثم من الوعي إلى المادة ثانية ، أي من الممارسة العملية إلى المعرفة ، ثم من المعرفة إلى الممارسة العملية مرة ثانية. تلك هي النظرية الماركسية عن المعرفة ، النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة. هناك عدد كبير من رفاقنا لم يفهموا بعد نظرية المعرفة هذه. وإذا سئلوا عن منبع أفكارهم وآرائهم وسياساتهم وأساليبهم ومخططاتهم واستنتاجاتهم وكلماتهم البليغة ومقالاتهم الطويلة ، يعتبرون السؤال غريباً ولا يجدون له جواباً. وهم لا يدركون أيضاً أن المادة يمكن أن تتحول إلى وعي وأن الوعي يمكن أن يتحول إلى مادة ، على الرغم من أن أمثال هذه القفزات هي ظواهر تشهدها على الدوام الحياة اليومية. ولذلك يجب تثقيف رفاقنا بالنظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة لكي يتمكنوا من تصحيح أفكارهم ، ومن إجادة القيام بالتحقيقات والدراسة وتلخيص التجارب ، والتغلب على الصعاب ، والتقليل من الأخطاء ، وتأدية أعمالهم على نحو مرض ، وخوض النضال الشاق من أجل بناء الصين حتى تغدو بلداً اشتراكياً عظيماً قوياً ، ومن أجل مساعدة الشعوب العريضة التي تعاني الاضطهاد والاستغلال في جميع أرجاء العالم تنفيذاً لواجبنا الأممي العظيم.

هذه فقرة مقتطفة من "مشروع القرار الصادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بصدد بعض القضايا المتعلقة بعملنا الراهن في الريف" ، وقد صيغ هذا المشروع تحت إشراف الرفيق ماو تسي تونغ. أما هذه الفقرة ، فقد كتبها الرفيق ماو تسي تونغ نفسه.

كلمة الناشر

يحتوي هذا الكراس على أربع مقالات فلسفية بقلم الرفيق ماو تسي تونغ ، منها مقالة "في الممارسة العملية" ومقالة "في التناقض" الواردتان أصلاً في المجلد الأول من "المؤلفات المختارة لماو تسي تونغ" ، ومقالة "حول المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب" ومقالة "من أين تأتي الأفكار السديدة ؟" الواردتان في "المقالات المختارة من مؤلفات ماو تسي تونغ (المجموعة 1)". وفي هذا الكراس أعادت لجنة نشر المؤلفات المختارة لماو تسي تونغ ترتيب بعض الملاحظات الملحقة ببعض المقالات وأدخلت عليها بعض التعديلات وفقاً لمتطلبات القراء الأجانب.

طبع في جمهورية الصين الشعبية

الفهرس